بسم الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وبه نستعين، ثم الصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وأفضل المرسلين، محمد صلى الله عليه وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين، واللعنة الدائمة على أعدائهم ومخالفيهم أجمعين.

قبل البدء في تفسير فاتحة الكتاب لابد وأن نشير إلى مقدّمة ضرورية وهي:

أسلوبنا في التفسير:

لأنَّ هذا الأمر له أهمِّية كبيرة في تقبُّل القاريء مع ما سنبيِّن من تفسير القرآن الكريم ، فالجدير أن نشرحه بالتفصيل فنقول:

ورد حديث في كتاب الاحتجاج للطبرسى (ره) عن اميرالمؤمنين عليه السلام حديث طويل وفيه يقول عليه السلام :

((ثم ان الله جل ذكره لسعة رحمته ورأفته بخلقه وعلمه بما يحدثه المبدلون من تغيير كلامه قسم كلامه ثلثة اقسام :فجعل قسما منه يعرفه العالم والجاهل ، وقسما لايعرفه الامن صفا ذهنه ولطف حسه وصح تمييزه ممن شرح الله صدره للاسلام))

بملاحظة هذا الحديث و الأنس بكلام الله سوف يمكننا أن نستكشف حقائق القرآن لنكون ممن شرح الله صدره، فإنَّ القرآن الذي بين أيدينا قد حافظ الله عليه من شرِّ المبدلين و المحرِّفين بأسلوب لا نظير له وذلك بتفريق آياته على سوره المختلفة بحيث لو جمع شملها لظهر منها بوضوح ما يريده سبحانه من المعنى ذلك كالجهاز الذي يتكوَّن من عشرات القطع يفرِّقها صاحبها -**كي لا** يسرق -ثمَّ ينقل تلك القطع وهي متفرقة من بلدٍ إلى آخر وعند وصوله إلى الغاية يجمعها مرَّة ثانية .

القرآن الكريم أشبه شيءٍ بذلك ، فمن اللازم على المفسِّر أن يلاحظ جميع الآيات المتعلّقة بالبحث ومن ثمَّ إبداء النظرية و الاستقرار على الرأي الصائب.

ثمَّ إن هذا الأمر لا يعني أنَّه يتمكَّن كلُّ إنسان صاف الذهن ولطيف الحس وصحيح التمييز من فهم كافة آيات القرآن الكريم ! **بل** يبقى الكثير من آياته لا يمكن لغير الراسخين في العلم وهم أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام أن يعرف الترابط بينها، فيتأكَّد في مثل هذه الموارد مراجعة أحاديثهم، بل حتى في الموارد الأخرى من اللازم الرجوع إلى ما رُوي عنهم عليهم السلام من الأحاديث في تفسير الآيات المباركة تأكيداً وتعزيزاً .

ولا بأس بذكر نموذج للمورد الأوَّل أعنى ما لا تدركه أذهاننا القاصرة :

((محمد بن عبد الله الطبراني عن أبيه عن علي بن هاشم و الحسن بن سكن معاً عن عبد الرزاق بن همام عن أبيه

عن مينا مولى عبد الرحمن عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: وقف على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم أهلُ اليمن يبشّون بشيشا، فلما دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم قال: قوم رقيقةٌ قلوبُهم راسخٌ إيمانُهم منهم المنصور يخرج في سبعين ألفا ينصر خلفي و خلف وصيي، حمائلُ سيوفهم المسَد، فقالوا : يا رسول الله: مَنْ وصيّك ؟ قال: هو الذي أمركم بالاعتصام به، فقال عزَّ و جلّ: "و اعتصموا بحبل الله جميعا و لا تفرقوا "فقالوا: يا رسول الله بيِّن لنا ما هذا الحبل ؟ فقال: هو قول الله: " إلاّ بحبل من و حبل من الناس " فالحبل من الله كتابُه و الحبل من الناس وصييِّ فقالوا: يا رسول الله: من وصيك ؟ فقال: هو الذي أنزل الله فيه "أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب " فقالوا يا رسول الله: و ما جنب الله هذا ؟ فقال: هو الذي يقول الله فيه: " يعضّ الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً "فوصييِّ السبيل إليَّ من بعدي.فقالوا: يا رسول الله بالذي بعثك بالحق، أرناه فقد اشتقنا إليه.فقال: هو الذي جعله الله آيه للمؤمنين المتوسمين، فان نظرتم إليه نظر منْ كان له قلب أو ألقى السمع و هو شهيد، عرفتم أنه وصيي كما عرفتم أني نبيكم، تخللوا الصفوف و تصفحوا الوجوه فمن أهوت إليه قلوبكم فإنَّه هو لأنَّ الله عزَّ و جلّ يقول في كتابه: "فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم" إليه و إلى ذريته عليهم السلام .قال: فقام أبو عامر الأشعري في الأشعريين و أبو غرّة الخولاني في الخولانيين و ظبيان و عثمان بن قيس و عرنة الدوسى في الدوسيين و لاحق بن علاقة فتخللوا الصفوف و تصفحوا الوجوه و أخذوا بيد الأنزع الأصلع البطين و قالوا: إلى هذا أهوت أفئدتنا يا رسول الله. فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلَّم: أنتم بحمد عرفتم وصيَّ رسول الله قبل أن تعرفوه و عرفتم أنَّه هو، فرفعوا أصواتهم يبكون و يقولون: يا رسول الله نظرنا إلى القوم فلم نحنَّ لهم و لما رأيناه رجفت قلوبنا ثم اطمأنت نفوسنا و انخدشت أكبادنا و هملت أعيننا و انثلجت صدورنا حتى كأنه لنا أب و نحن له بنون. فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلَّم: و ما يعلم تأويله إلا الله و الراسخون في العلم، أنتم منهم بالمنزلة التي سبقت لكم من الله الحسنى و انتم عن النار مبعدون قال: فبقي هؤلاء القوم المتوسمون حتى شهدوا مع أمير المؤمنين عليه السلام الجمل و صفين رحمهم الله، فكان النبي صلى الله عليه وآله وسلَّم بشرهم بالجنة و أخبرهم انهم يستشهدون مع علي بن أبي طالب عليه السلام))

فتلاحظ كيف ربط رسول الله صلى الله عليه و آله قوله تعالى **"و اعتصموا بحبل الله جميعا و لا تفرقوا "**بقوله **" إلاّ بحبل من و حبل من الناس "** وذلك من خلال حلقة الوصل بينهما وهو **"الحبل"** ثمَّ استنتج من الآية الأخيرة أنَّ هناك أمراً قد وقع في جنب الله تعالى ومن خلاله انتقل إلى قوله تعالى **"أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب "** وأثار سؤالاً آخر وهو : **ما المقصود من جنب الله؟**

وإجابة على هذا السؤال رجع إلى كلمة **"يا حسرتا"** التي تعطي نفس مفهوم **"يا ليتني"** الواردة في قوله تعالى" **يعضّ الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً** " ومن ثمَّ يعرف المقصود من السبيل الذي هو مع الرسول وهو الوصيّ ، وهكذا انتقل إلى قوله تعالى " **إنَّ فِي ذلِك لآياتٍ لِلمتوسمين**" والسر في الاعتماد بهذه الآية هو الآية التّي جاءت بعدها حيث يقول سبحانه " **وإنَّها لبسبيل مقيم** " فهناك إذاً حلقة وصلٍ بينهما وهو كلمة **"سبيل"** ثمَّ أراد الرسول منهم أن ينظروا إليه نظر **"من كان له قلب أو ألقى السمع و هو شهيد"** كي يعرفوه وأمّا كيف اعتمد على هذه الآية وربطها بالسابقة ؟ الظاهر أنَّ هناك علاقة بينها وبين تلك باعتبار أنَّ المتوسِّم هو الذي كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، مضافاً إلى أنَّ الموضوع يرتبط بالقلب و الشهود وهو سبحانه يقول: "**فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم**" وأخيراً يربط الرسول الأكرم صلوات الله وسلامه عليه المسألة بعلي وذريته عليهم السلام .

ثمَّ إنَّهم لمّا عثروا على الوصيِّ بنفس الموازين التّي تعرَّفوا عليها قال صلوات الله عليه "**و ما يعلم تأويله إلا الله و الراسخون في العلم**" وبذلك كشف عن معنى واقع التأويل المذكور في الآية المباركة ، وأنَّه نوعٌ من تطبيق المفهوم على المصداق ، ثمَّ استند على قوله تعالى "**إنَّ الَّذِين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون**" حيث طبَّق الآية على هؤلاء الجماعة ، وبيَّن عاقبة المحبِّين لهم عليهم السلام وأيضاً أكَّد على أنَّ الحسنى هي معرفتهم عليهم السلام .

فانظر إلى عمق هذا التفسير الصادر عن معدن الوحي والربط الحاصل بين تسعة آيات لا يمكن أن يعرف ذلك الربط إلا الله والراسخون في العلم .

وهناك مئات من الأحاديث التّي تفسِّر القرآن بهذا الأسلوب المنطقي والذي يعمد على نفس القرآن من غير الابتعاد عنه أصلاً .

وعليه:

لا محيص إلا إتباع طريقة الرسول وأهل بيته الكرام عليهم آلاف التحيَّة والسلام في تفسير القرآن الكريم، وأيّ تخطٍّ عنه سوف يجرُّ الإنسان إلى الضلال المبين .

وبناءً على هذا ينبغي أن نشير إلى أهم النقاط التّي بيانها لفهم بعض عبارات القرآن بل إشاراته .

1-الالتزام بالآيات القرآنية وعدم الخروج منها

نشاهد الكثير من المفسِّرين، يخرجون عن مضمون الآية ويدخلون في أبحاث اجتماعية أو أخلاقية لا علاقة لها بالآية أصلاً إلا الاشتراك في العنوان، ثمَّ يأتون بالروايات والأقوال ويطنبون الحديث في مجال ذلك الموضوع ذاهلين عن أنَّهم مفسِّروا القرآن .

أمّا نحن فنحاول أن نحوم حول القرآن الكريم وآياته المباركة من غير خروج عنها ، ولو تطرَّقنا إلى أمور أخرى فسوف نمرُّ عليها مروراً سريعاً .

نعم:

لا نلتزم في تفسيرنا على الآية التي بين أيدينا فحسب، بل سوف ندخل في الآيات الأخرى التّي لها تعلُّق ما بالآية فنربط بعضها ببعض ، كما شاهدنا في حديث الرسول الأكرم (ص) ، وليس الغرض من التفسير معرفة الآية كآيةٍ منفصلةٍ عن سائر الآيات بل الغرض هو **معرفة القرآن الكريم كقرآن** فلا بأس بالدخول في كلِّ القرآن عند الحديث عن آية واحدة مادام هناك صلة بينها وبين سائر الآيات القرآنية كما هو المشاهد بخصوص سورة الفاتحة التي هي **أم الكتاب ،** فإنَّها مشتملة على جميع المفاهيم التي وردت في القرآن ولكن بشكل مجمل .

ولكن : حيث أنَّه ربَّما تضيع حلقات الوصل بين الآيات المباركة أو يصعب العثور عليها -كما هو كذلك في النموذج الذي نقلناه عن الرسول(ص)- فسوف ندعم كلِّ مقطع أو كلِّ آية برسمٍ بياني متكاملٍ يُسهِّل في فهم المقصود عند لجوء القارئ إليه في نهاية كل بحث ، وبذلك سوف تنحل العقدة و تنكشف المعاني.

ولا ندَّعي أنَّنا نتمكَّن من العثور على جميع ما هو مرتبطٌ بالآية من الآيات الأخر ، فادعاء ذلك من غير المعصومين عليهم السلام ينبأ عن الجهل ، بل كلُّ ما نريد أن نقول هو أننا نسعى لمعرفة بعض الآيات المترابطة فـ**ما لا يدرك كلُّه لا يترك كلُّه !**

ومن الواضح أنَّ الأبحاث القرآنيَّة التي نبيِّنها في السور الأولى لن نكرِّرها في سائر السوَر بل نحيل القارئ الكريم إلى ما مضى ، وعليه كلَّما نتقدَّم في التفسير سوف تقلّ الأبحاث ، اللهم إلا لو كانت الآية ذات مضمون آخر لم نتحدَّث عنه سابقاً أو كان البحث السابق غير مستوعَب.

ونؤكِّد مرَّة أخرى على أنَّ كلَّ ذلك غير ممكن إلا بالاعتماد على الثقل الآخر وهم أهل البيت عليهم السلام .

2-الاهتمام البالغ بالأحاديث المفسِّرة

الأحاديث الشريفة لها الدور الكبير في معرفة كثير من الآيات القرآنية و كشف الغموض منها لأنَّه لا يعرف القرآن إلا من خوطب به، ولذلك سوف نستفيد من الأحاديث التي تشير إلى الآية فقط و أمّا سائر الأحاديث الواردة في أبواب أخرى لا علاقة لها بالآية إلا من باب الاشتراك الموضوعي ، فلا نذكرها أصلاً.

3-عدم التطرق إلى أقوال المفسِّرين إلا ما شذَّ و ندر

وهذا لا يعني أننا لن نلاحظ الأقوال بل الأمر بالعكس تماماً، فسوف نلاحظ كلام جميع المفسرين بعون الله و سوف نستفيد من النقاط العلمية التي ذكروها حيث لا يمكننا أن نستغنيَ عنها إلاّ أننا لن ننقل القرآت ووجوه الإعراب و الأقوال التّي تطرَّقوا إليها

تلك الأقوال التي لا دليل عليها حيث أنَّ ذلك سوف يوجب ذلك يوجب الحيرة و الالتباس ، مضافاً إلى أنَّه لا داعي للتكرار فمن أراد فليراجع تلك المصنَّفات ، وقد اتَّبع هذا الأسلوب العلامة الطباطبائي (رضوان الله تعالى عليه.

نعم تبقى عقدٌ كثيرة لا يمكننا أن نحلَّها إلا بمراجعة من هو جدير بتفسير القرآن الكريم ، ومن خلال البحث في كتب القوم ومراجعة كتب الإمام الخميني قدِّس سرُّه خصوصاً تفسيره لسورة الحمد وسورة التوحيد والقدر وكثيرٍ من الآيات وصلنا إلى قناعة كاملةٍ بالنسبة إلى آراءه المباركة دعماً وشاهداً .

4- التدبر والاستنتاج

إنّ القرآن الكريم يؤكّد على التلاوة ومن ثمَّ التدبُّر والتمعُّن كما هو واضح ، فليس من الضروري أن يتحدَّث الإنسان عن كلِّ آية ويشرحها مادام هناك آية أخرى شارحة لها ، ولهذا نحن لا نلزم في تفسيرنا هذا بشرح كلِّ الآيات التّي نذكرها كدليل على المدَّعى أو شاهدٍ له ، بل ربَّما ذكرنا آيةً أو آياتٍ مترابطة من غير أن نعلّق عليها تاركين القارئ اللبق يفكّر و يتدبَّر ليعثر على ضالته .

نعم الأمر يختلف بخصوص الآية الرئيسيَّة التي هي محور البحث، فلا بدَّ من شرح مفرداتها والتعمُّق فيها بالمستوى المطلوب.

5-الاعتماد على سياق الآيات

إنَّ أهم ما ينبغي إتباعه في تفسير القرآن الكريم هو السياق ،ونعني به هو نمط البيان و أسلوب الخطاب ، وهذا ليس له ميزان محدَّد ، بل هو يرتبط ارتباطاً مباشراً بأمور كثيرة ، أهمُّها لحن البيان مثل التعجب والاستفهام والتحريض و التهديد وما إلى ذلك، فالكلمة الصادرة عنه تعالى تختلف من مقامٍ إلى مقام ، فهناك فرق كبير بين قوله تعالى :{ **فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ** }

وقولـه { **قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا**} وقوله { **كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا**}

وكذلك قوله تعالى { **فَهَلْ أَنْتُمْ مُنتَهُونَ** } وقوله{ **فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا** } وقوله { **فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ**} وقوله{ **فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ**}وقوله { **فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ**}.

من خلال هذه الأمثلة لا أريد القول بأنَّ السياق يرتبط بالصيَغ كصيغة الأمر في "**كونوا**" **أو الأدوات "كهل"،** بل أردت أن أبيِّن نموذجاً له ، وأما حقيقة المسألة فهي أوسع من هذه الأمور ، فموارد السياق لا تعدُّ و لا تُحصى، وسيتَّضح لك المراد منه في مطاوي التفسير إن شاء الله تعالى.

ثمَّ إنَّ هناك أمر رئيسي له دور مهمٌّ في معرفة السياق وهو :

6-الاعتماد على المقاطع المختلفة في السورة الواحدة

فمن أراد أن يفسِّر القرآن الكريم ينبغي له مضافاً إلى فهم الآية الخاصَّة أن يلاحظ المقطع الكامل الذي يشتمل على الآية المباركة

،فحينئذٍ سوف يستفيض من روح الآيات وملكوتها.

ولتوضيح الأمر نستعرض مثالاً واضحاً يتعلّق بأم الكتاب أعني سورة الحمد الآتي في هذا الكتاب :

فهذه السورة تقع في مقطعين رئيسيين : **أحدهما:** يرتبط بالله تعالى **والآخر:** يرتبط بالناس ، فقوله تعالى:{ **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ، مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ** } يرجع إلى الله، وقوله { **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ، اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ** } يتعلّق بالناس ، فعلى المفسِّر أن يفصل بين المقطعين ليفهم المعنى ثمَّ يربط بينهما.

وينبغي أن ننبِّه على أنَّه ليس هناك ميزاناً معيَّناً لعدد الآيات التي تشكّل مقطعاً متكاملاً ، فربَّما تكون أربعة و ثلاثة كما في سورة الحمد أو تكون تسعة كما في سورة الأحزاب حيث يبدأ مقطع جديد من قوله تعالى:{**يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً**} وينتهي بقوله{ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُبِينًا**} أو تكون الآيات أكثر.

ونحن نركّز على المقاطع كمجموعة متكاملة ونحاول أن نستخرج تفسيراً للمجموعة وتفسيراً للآية .

7-ملاحظة أدوات الربط بين الآيات

الملاحظ في كثير من السور القرآنية أنَّ هناك كلمات لها دورٌ مهم لربط ما في السورة من مقاطع مختلفة ذلك لئلا ينسى القاريء بداية السورة وهو في أواسطها أو نهايتها ، انطلاقاً من حقيقة "**تداعي المعاني في الذهن**" التي لها أهمِّية بالغة في علم النفس ، فينبغي للمفسِّر أن يلاحظ تلك الكلمات ويتعرَّف عليه ليتمكَّن من معرفة الجوّ المخيِّم على السورة من البعد الهدائي ، فإنَّ ذلك من أهمّ الأسس في تفسير القرآن الكريم .

مثل:

توضيحاً للمقصود نذكر مثالاً يتعلّق بسورة يوسف التّي يوصفها الله بأنَّها "**أحسن القصص**"فهذه السورة تشتمل على أربعة مقاطع :

1-انتهى بقضيَّة النسوة

2-انتهىبتفسير رؤيا صاحب السجن

3-انتهى بمجيء أخوة يوسف

4-وانتهى بمجي أبيه وأمِّه.

تلاحظ أنّه قد كرِّرت كلمتان في جميع مقاطع السورة ، وهما"**الربّ**" "**المراودة**" رغم أنَّه لا يقصد منهما معنىً واحداً فالسرّ

في تكرار الكلمة يرجع إلى الأمر الذي بيَّناه ، فبالنسبة إلى كلمة الرب فقد وردت مع ضمير التكلّم **"ربي"** ثمان مرّات ، ومع ضمير الخطاب **"ربّك"** أربع مرّات ، ومع ضمير الغيبة **"ربّه"** أربع مرات أيضاً رغم أنَّ المقصود منها ليس أمراً واحداً بل في بعض الموارد يقصد منها الملك كقوله:**{ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ }**وربَّما أريد منها الله تعالى:**{ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ }**وربَّما جمع بينهما كقوله: **{ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ {**

فهذه الكلمة هي الخيط الذي يربط كافة أبعاد السورة المباركة ويوَجِّه مسيرتها الهدائية .

وأمّا بالنسبة إلى المراودة فهي أيضاً لها نفس الدور أعني الربط بين المفاهيم المختلفة في السورة ربطاً هدائيّاً رغم أنَّه لا يقصد منها معنىً واحد ، فالذي يرعي الإنتباه أنَّ الكلمة قد وردت في غير هذه السورة في مورد واحد فقط يتعلّق بلوط حيث يقول: **{ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ}**

وأمّا في خصوص هذه السورة فقد وردت في ستة مواضع وهي:**{وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ}** ثم جاءت بعد ذلك **{قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ }** وتكررت في قوله **{ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ}** وقوله**{ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ}**وقوله **{ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ }**

فهذه خمس مواضع وردت فيها الكلمة بصيَغِها المختلفة ، فياترى ما هو السرّ في ذلك؟

عندما نقرأ الآية التالية **{ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ}** وقد وردت في آخر مقطع من السورة المباركة يمكننا أن نتعرَّف على أحد أسرار ذلك ، فكأنَّه سبحانه يريد من الإنسان وهو يقرأ هذه الآية التّي تبيِّن مستوى يوسف ومكانته في قبال إخوته ومستوى ذلّهم و تواضعهم في قباله ، أن لا ينسى يوسف وهو في بيت العزيز و بين النسوة وفي السجن ، كي يستلهم من ذلك أمراً حيويّاً له تأثير كبير في حياته فيعرف قدرة الله تعالى وكيفيَّة إعزازه من يشاء وإذلاله من يشاء ، فيهتدي بهدى القرآن وبهذا تمكّن سبحانه من تحقيق هدفه

الذي هو الهداية .

والحاصل أنَّنا سوف نركّز في تفسيرنا على هذا الجانب أيضاً .

نتمنَّى منه تعالى التوفيق للسير على السبيل القويم الذي لا عوج فيه ، ونستعينه ليسدِّد خُطانا لعلَّنا نُوفَّق في استمرار هذا العمل المتواضع وإكماله ، ونستغفره على كلِّ حال فإننا المذنبون وهو اللطيف بعباده .

تفسير سورة الفاتحة

مقدمة

أسماؤها وسبب تسميتها بها:

لسورة الحمد أسماء كثيرة تتجاوز عشرين اسماً، وكل اسم منها يشير إلى جهة من الجهات المتوفرة في السورة و يُلاحظ فيه جانب من جوانبه، ومن خلال الأحاديث - سواء أحاديثنا أو أحاديث العامَّة - نستنتج إن أهم تلك الأسماء ما نقلت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهي:

الأول: أم القرآن أو أم الكتاب

سمّيت الفاتحة بهذا الاسم لأنها تشتمل على جميع القرآن الكريم، فهي جامعة لمقاصده ومحتواه، فهي بمنزلة الرأس للقرآن، كما يقولون " **أم الرأس** " أو " **أم القرى** ".ولأنَّه كالفذلكة لما فصِّل في القرآن المجيد. و لتقدمها على سائر القرآن، وتسمي العرب كل جامع أمرا أو مقدم لأمر **أما**، فيقولون للجلدة التي تجمع الدماغ أمَّ الرأس وتسمي لواء الجيش ورايتهم التي يجتمعون تحتها **أما**.والمتأمِّل فها يشاهد أنَّها انعكاس للقرآن جميعاً.

الثاني: فاتحة الكتاب

لأنه يفتتح بكتابتها المصاحف، فهي أوّل سورة مكتوبة في المصحف، وكذلك في القراءة فتبدأ قراءة القرآن بهذه السورة. وأيضاً قراءتها في الصلاة فهي فاتحة لما يتلوها من سور القرآن.

الثالث: السبع

لأنها سبع آيات، حيث أنَّ البسملة آية منها كما سيأتي.

الرابع: المثاني

لأنَّها تثنى بها في كل صلاة فرض ونفل – بمعنى أنها تقرأ مرتين، في الركعة الأولى والركعة الثانية سواء كانت صلاة واجبة أو صلاة مستحبة - .

شأنها

في كتاب ثواب الأعمال بإسناده:

((قال أبو عبد الله عليه السلام: اسم الأعظم مقطع في أم الكتاب))

أي الاسم مقطَّع في السورة و مقسّم بينها.

وفي كتاب الخصال:**((عن أبى عبد الله عليه السلام قال: رنَّ إبليس أربع رنات: أوَّلهنَّ يوم لُعن ، وحين أهبط إلى الأرض، وحين بُعث محمد صلى الله عليه وآله وسلم على حين فترة من الرسل، وحين نزلت أمّ الكتاب))**

((في أصول الكافي: محمد بن يحيى عن احمد بن محمد بن عيسى عن محمد بن إسماعيل بن بزيع عن عبد الله بن الفضل النوفلي، رفعه قال: ما قرأت الحمد على وجع سبعين مرة إلاّ سكن))

((ممحمد بن يحيى عن احمد بن محمد عن محمد بن سنان عن سلمة بن محرز قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: من لم يبرأه الحمد لم يبرأه شيء))

((عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبى عمير عن معاوية بن عمار عن أبى عبد الله عليه السلام قال: لو قرأت الحمد على ميت سبعين مرة ثم رُدَّت فيه الروح ما كان ذلك عجباً))

أقول:

إنَّ الأمراض لا تعالج بقراءة السورة فحسب، بل لا بد من الإنسجام الكامل مع السورة وإلقاء محتواها على المريض – كما فعل سيدنا إبراهيم عليه السلام، حيث قال سبحانه وتعالى:

{فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنْ الطَّيْرِ، فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا}

فبعد أن تتحقق الصيرورة وهي نوع من الارتباط بين روح الإنسان و ملكوت الشيء ونوع من التعلُّق النفساني بينهما، حينئذٍ يقول:

{ ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا}

فالإحياء لم يحصل إلا بعد ذلك الانسجام الروحي، وهذا الأمر جارٍ في الدعاء والصلاة والطواف وجميع العبادات، فكلُّها تتطلَّب الانسجام الروحي.

نصف لي ونصف لعبدي:

قد أشرنا في المقدَّمة أنَّ السورة تنقسم إلى قسمين ، وهذا الأمر قد ورد في الحديث التالي ذات السلسة الذهبيَّة:

((في عيون الاخبار حدثنا محمد بن القاسم المفسر الاستر آبادى رضى الله عنه قال : حدثنا يوسف بن محمد بن زياد ، وعلى بن محمد بن سيار عن أبويهما ، عن الحسن بن على بن محمد بن على بن موسى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبي طالب عن أبيه على بن محمد عن أبيه محمد بن على عن أبيه على بن موسى الرضا عن أبيه موسى بن جعفر عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال الله عزَّ وجل:قسمت فاتحة الكتاب بيني وبين عبدي، فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل، إذا قال العبد: بسم الله الرحمن الرحيم، قال الله جل جلاله: بدأ عبدي باسمي وحق على أن أتمم له أموره وأبارك له))

****

قال تعالى:

{ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ }

البسملة جزء من كلِّ سورة في القرآن الكريم ، إلاّ سورة التوبة، كما أنَّ هناك سورة ورد فيها البسملة في موضعين وهي سورة النمل و لكنَّها نقلت عن لسان سليمان حيث قال: { **وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ** }

ولذلك فلو قرأت سورة الحمد في الصلاة من غير البسملة عمداً، فالصلاة تكون باطلة، لأنَّه لا معنى لفاتحة الكتاب من غير البسملة، بل جميع السور لها هذا الحكم، وإن كان بعض العامة يعتقد بأن "بسم الله " جزء من سورة الحمد فقط.

((أخرج الدار قطنى وصححه والبيهقي في السنن عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:...وبسم الرحمن الرحيم إحدى آياتها))

شأن البسملة:

((قال الباقر عليه السلام: بسم الله الرحمن الرحيم اقرب إلى اسم الله الأعظم من سواد العين إلى بياضها))وفي حديث آخر **((محمد بن على بن محبوب عن محمد بن الحسين عن محمد بن حماد بن زيد عن عبد الله بن يحيى الكاهلي عن أبي عبد الله عليه السلام عن أبيه قال: بسم الله الرحمن الرحيم أقرب إلى اسم الله الأعظم من ناظر العين إلى بياضها))**وفي حديث ثالث ((**عن أبى بصير، عن أبى عبد الله عليه السلام انه سئل عن تفسير بسم الله الرحمن الرحيم فقال : الباء بهاء الله و السين سناء الله و الميم ملك الله))**وبالنسبة إلى كتابتها، ورد الحديث التالي في الكافي للكليني، بإسناده:((**قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم من أجود كتابك... ولا تمد الباء حتى ترفع السين))**

قال الفيض الكاشاني (ره) في الوافي توضيحاً للحديث:

"إن المقصود بـ ولا تمد الباء يعنى إلى الميم – يقصد لا تجعل الباء تمتدّ إلى الميم حيث لا تكتب السين بدون تضريس،و وقع التصريح به في حديث أمير المؤمنين (ع): ورفع السين، تضريسه "

أقول

إنَّ الأثر الإيجابي للكلمات الإلهيَّة، يتوقَّف على كتابتها صحيحة وهذا الأمر يرجع إلى أسرار الحروف وهو علمٌ مستقلٌ في قبال سائر العلوم ، وهو من العلوم التي تسمَّى بالغريبة.

متعلق الجار و المجرور

قال علماء النحو إنَّ الجار والمجرور يفتقر إلى متعلَّق مشتق ، فعلاً كان أو أسمَ فاعلٍ أو اسمَ مفعولٍ أو صفةً مشبّهة باسم الفاعل أو أفعل تفضيل أو مصدر، والسر في ذلك أنَّ الحرف ما هو إلا للربط، والرابط لا بدَّ أن يربط بين شيئين، فلو لم يكن هناك إلاّ شيءٌ واحدٌ، فلا ربط في البين و حيث لا ربط فلا مربوط.

و ربَّما يحذف المتعلَّق عند وجود قرينة على الحذف، كما في قولك " **زيدٌ في الدار** " **أي مستقر.**

ولكن هذا الأمر لا يتأتَّى في البسملة. فعندما يقال "**بسم الله الرحمن الرحيم** "فمن الطبيعي أن يُسأل:

باسم الله ماذا ؟ في الجواب، قال الكثير من المفسرين:**باسم الله أستعين**، وهذا رغم شهرته لا دليل عليه، فلقائل أن يقول باسم الله **أتوكل** أو **أستغفر** أو...،**ف**كلُّ تلك الأفعال تفتقر إلى قرينة غير موجودة، فما هو الحلّ إذاً ؟

ارتباط البسملة بالسورة

مادام أن البسملة مرتبطة بالسورة، فلماذا نلتجأ إلى خارج السورة للبحث عن متعلق، فبالإمكان حصول المتعلق من نفس السورة و هو المتعيَّن.

فما هو المتعلَّق؟

إنَّ المتعلَّق للجار و المجرور في البسملة هو ما يأتي بعدها، وفي سورة الفاتحة هو " **الحمد لله** ".

فيكون المعنى هكذا:

إنَّ جنس الحمد لله تعالى، ذلك لأنَّه لا يتحقق حمدٌ إلاّ باسمه تعالى، فمادام الحامد هو اسم الله و المحمود هو اسم الله، فالحمد لله و يكون باسم الله، لأنَّ كل شيء علامة لله وآية له، فتحقَّق الإرتباط بين بسم الله وبين الحمد لله.

وهذا لا يختص بسورة الفاتحة بل هو جارٍ في جميع السور، فباسم الله الرحمن الرحيم **أقرأ**، و باسم الله الرحمن الرحيم**قُلْ** و هكذا، وان كان نطاق الاسم في كلِّ سورة غير نطاقه في سورة أخرى، كما أنَّ أوسع دائرة و نطاق لأسم الله هو نطاق الاسم

الموجود في بسملة سورة الفاتحة، وذلك لسعة إطار **الحمد** لأنَّه لله ربِّ العالمين.

والسر في

أنَّ سورة التوبة لا تبتدأ باسم الله لأنَّها تبدأ بالبراءة والنفي وهي تعني الابتعاد والتنفُّر و الانزجار، ولا يكون ذلك باسم الله، فالعدم الصرف و الشرّ المحض لا يكون مظهراً من مظاهر الله تعالى، كيف و هو - جلَّ شأنه و تبارك اسمه - وجودٌ مطلقٌ و خيرٌ محضٌ وكمالٌ صرف.

يقول الإمام (قدس الله نفسه الزكية)

"وليُعلم أن " بِسْمِ " من كل سورة، تتعلق على مذهب أهل العرفان بنفس السورة المبدوءة بها، ولا تكون متعلقه بـ " أسْتَعِينُ " أو أمثاله ويختلف معنى بسم الله في كل سورة لاختلاف متعلقة من سورة لأخرى من السور القرآنية -في اللفظ ومظهره –في المعنى. بل يختلف معناه على ضوء اختلاف الفعل والأعمال التي تصدر من الإنسان والتي تبتدئ ببسم ، لأنه يتعلق ويرتبط بذلك العمل الخاص والفعل المعين الذي ابتُدأ ببسم الله. والعارف بالمظاهر وظهور الأسماء الإلهية، يرى ويشاهد بأن جميع الأفعال والأعمال والأعيان والأعراض ظاهرة ومتحققة بالاسم الشريف الأعظم، وبمقام المشيئة المطلقة"

وقال قدس سره في كتاب الآداب المعنوية للصلاة:

" اعلم أن العلماء اختلفوا في متعلق باء بسم الله الرحمن الرحيم وذكر كل حسب مشربه من العلم والعرفان متعلقا لها، كما أن علماء الآداب اشتقوا من مادة الابتداء أو الاستعانة كلمة جعلوها في التقدير..ويحتمل أن يكون بسم الله في كل سورة متعلقا بتلك السورة، فمثلا بسم الله سورة الحمد المباركة، متعلق بالحمد وهذا مطابق للذوق العرفاني ومسلك أهل المعرفة، لأنه إشارة إلى أن حمد الحامدين وثناء المثنين أيضا بقيمومة اسم الله، فبناء على هذا فالتسمية في مقدمة جميع الأقوال والأفعال التي هي من جملة المستحبات للتذكر بأن كل قول وفعل، لابد وأن يتحقق بقيمومة اسم الله، فبناء على هذا الاحتمال معنى بسم الله الرحمن الرحيم في أوائل السور يختلف. وقال الفقهاء: لابد وأن يتعين بسم الله الرحمن الرحيم لكل سورة فإذا قرأ بسم الله بنية سورة في الصلاة فلا يجوز ابتداء سورة أخرى بتلك التسمية، وهذا القول على المسلك الفقهي لا يخلو من وجه "

التدبُر في البسملة

و عند التدبر في الآية المباركة نستنتج أنَّ " الله" كان اسماً معروفاً لدى العرب في عصر نزول القرآن ، لأنه تعالى يخاطب عامَّة الناس فيقول لهم باسم الله، أي اعتمدوا في أعمالكم على و ابدأو باسم ذلك الله الذي تعرفونه أنتم، فالنبي صلى الله عليه وآله لم يعرِّف الله فحسب ، بل دعا الناس إلى توحيده ، وهذا

ما تشير إليه مئات من الآيات المباركة.

ثم

إنَّ من الضروري أن يبدأ الإنسان كلَّ عمل يعمله باسم الله تعالى وذلك لبداية القرآن في جميع سوره بالبسملة. وقد أكَّد سبحانه ذلك في موارد كثيرة:

الف: الأكل بلسم الله:

قل تعالى:

{فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ}وقد نهى سبحانه عن الأكل ممّا لم يذكر اسم الله عليه **{وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ}**

ب: حركة السفينة باسم الله:

{وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِاسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} ذلك لأنَّه تعالى هو المسخِّر للفلك والأنهار :{ **وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ** }

ج: أهم الأعمال:

من الجدير أنَّ أكبر عمل يتحقق في المساجد هو ذكر اسم الله كثيراً، وجميع الأعمال بما أنَّها مفردة من مفردات الاسم يكون لها قيمة، قال تعالى:

{الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}

د: سليمان وبسم الله:

قل تعالى:{ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ}

هـ: التسبيح باسم الرب:

وردت عشرات الآيات في هذا المجال، منها قوله تعالى: **{ فَسَبِّحْ بِسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ }**

و: القراءة بلسم الرب:

قل تعالى:{ اقْرَأْ بِسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ }

{الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ}

الصفتان قد وردتا في موردين من هذه السورة المباركة :

أحدهما في البسملة وهي الآية الأولى.

وثانيهما في الآية الثالثة.

وقد وردتا في أربع سور أخرى مكررة، ففي البقرة كررت في الآية 163 و في النمل كرِّرت في الآية 30، وفي فصِّلت الآية 2 و الحشر الآية 22 **ومن** الواضح أنَّ التكرار ليس من باب التأكيد بل له سرٌّ آخر، و في بيان الفرق بينهما في خصوص الفاتحة قد أبدى المفسرون آراء مختلفة، سوف نشير إلى بعضها فيما بعد إن شاء الله.

الصفتان في اللغة

إنَّ صفتي الرحمن و الرحيم بعد اسم الجلالة لهما الأهمية الكبيرة قياساً لسائر صفاته تعالى ، وذلك لافتتاح الكتاب بهما فمن اللازم أن نتحدَّث عنهما بالتفصيل :

قال في لسان العرب:

"رحم: الرحمة: الرقة والتعطف والمرحمة مثله وقد رحمته وترحمت عليه وتراحم القوم: رحم بعضهم بعضا. و الرحمة: المغفرة وترحمت عليه أي قلت رحمة الله عليه. واسترحمه: سأله الرحمة والله الرحمن الرحيم: بنيت الصفة الأولى على فعلان لان معناه الكثرة وذلك لان رحمته وسعت كل شيء وهو أرحم الراحمين فأما الرحيم فإنما ذكر بعد الرحمن لأن الرحمن مقصور على الله عز وجل، والرحيم قد يكون لغيره "

وقال في المفردات:

"رحم: الرحم رحم المرأة...ومنه استعير الرحم للقرابة لكونهم خارجين من رحم واحدة يقال رَحم ورُحم قال تعالى: وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا، فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا والرحمة رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم وقد تستعمل تارة في الرقّة المجردة،وتارة في الإحسان المجرد عن الرقة، نحو رحم فلانا، وإذا وصف به الباري فليس يراد به إلا الإحسان المجرد دون الرقة، وعلى هذا روى أن الرحمة من الله إنعام و إفضال، ومن الآدميين رقة وتعطف "

أقول:

والشاهد على أنَّ الرحِم أيضاً من نفس المقولة هو ما وردت من أحاديث في هذا المجال منها: **((عن عمرو بن جميع قال:كنت عند أبي عبد الله عليه السلام مع نفر من أصحابه فسمعته و هو يقول: إن رحم الأئمة عليهم السلام من آل محمد صلى الله عليه وآله ليتعلق بالعرش يوم القيامة و تتعلق بها أرحام المؤمنين، يقول: يا ربِّ صلْ من وصلنا، و**

اقطع من قطعنا قال: فيقول الله تبارك و تعالى: أنا الرحمن و أنت الرَحِم شققتُ اسمك من إسمي، فمن وصلك وصلتُه و من قطعك قطعتُه و لذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم: **الرحم شجنة من عز و جل"**

معنى الشجن:

"الشجن: الهم والحزن والجمع أشجان وشجون. قال الجوهري: والشجنه والشجنه عروق الشجر المشتبكة. وبيني وبينه **شجنة رحم، وشجنة رحم أي قرابة مشتبكة. والشجن والشجنة والشجنة: الشعبة من الشيء. والشجنة:** يعني قرابة من الله **مشبكة كاشتباك العروق شبهه بذلك"**

الجمع بين الرحمن والرحيم

إنَّ الرحمن و الرحيم كالندمان والنديم وهما على وزن فعلان و فعيل وقد تحدَّث المفسرون تبعاً لأهل اللغة حول هذين الصفتين كثيراً و الآراء فيهما متضاربة.

قال الفارسي: " **إنما قيل بسم الله الرحمن الرحيم فجيء بالرحيم بعد استغراق الرحمن معنى الرحمة لتخصيص المؤمنين به فيقوله تعالى: وكان بالمؤمنين رحيما كما قال: اقرأ باسم ربك الذي خلق ثم قال: خلق الإنسان من علق فخص بعد أن عم لما في الإنسان من وجوه الصناعة ووجوه الحكمة ونحوه كثير.**

قال الزجاج:" الرحمن اسم من أسماء الله عز وجل مذكور في الكتب الأول ولم يكونوا يعرفونه من أسماء الله "

وحكى الأزهري عن أبي العباس: " **جمع بينهما لان الرحمن عبراني والرحيم عربي"**

قال الجوهري: " **الرحمن والرحيم اسمان مشتقان من الرحمة ونظيرهما في الله نديم وندمان وهما بمعنى ويجوز تكرير الاسمين إذا اختلف اشتقاقهما على جهة التوكيد كما يقال فلان جاد مجد إلا أن الرحمن اسم مختص لله تعالى، لا يجوز أن يسمى به غيره ولا يوصف. ألا ترى أنه قال: "قل ادعوا أو ادعوا الرحمن "** ؟ **فعادل به الاسم الذي لا يشركه فيه غيره وهما من أبنية المبالغة ورحمن أبلغ من رحيم والرحيم يوصف به غير الله تعالى فيقال: رجل رحيم ولا يقال رحمن "**

الصفتان في القرآن

ونحن نحاول أن نصل إلى حقيقة الأمر فيهما و ذلك من خلال القرآن نفسه، فنقول:

أمّا الرحمن:

فلا يطلق إلا على الله تعالى من حيث إن معناه لا يصح إلا له، فهو الذي وسع كل شئ رحمة. **قال تعالى:{الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} و**لعلَّه إشارة إلى سعة الرحمة لأنَّ العرش هو الذي له إشراف كامل على ما سواه، ولهذا قال تعالى:

{الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَانُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا} أنظر إلى كلمة الرحمان فهي تبين أنَّ الذي استوى على العرش هو الرحمان، فهذه الصفة هي التي تتَّسم بهذه الصبغة، أعني الوسعة والاستيعاب، ونظراً إلى الرحمانية لا تفاوت في الخلق أصلاً بل الأشياء كلُّها من هذا المنظار في مستوى واحد. **قال تعالى:**

{الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَانِ مِنْ تَفَاوُتٍ... }

فكلُّ خير من الرحمان كما أنَّ العذاب باعتباره مظهر لغضب الله تعالى فهو من الرحمان ، وأمّا الشر بما هو شرّ فلا علاقة له بالله لأنَّه أمرٌ عدمي، وإليه يشير الحديث :

((إنّ الخيرَ في يديك والشرَّ ليس إليك))

ومن هذا المنطلق قال إبراهيم الخليل، يخاطب أباه :

{يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنْ الرَّحْمَانِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا}

والحاصل إنَّ النعم العامة في الكون، ناشئة من رحمانية الله، فطيران الطير بل عدم سقوطه ليس هو إلا مظهراً لرحمانيته تعالى:

{ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَانُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ}

و تعليم الإنسان وخلقه أيضاً من تجلّيات الرحمن حيث قال:

{الرَّحْمَانُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الإِنسَانَ}

ومع التأمل في السورة كلّها و الغور في النعم المذكورة فيها يمكننا أن نصل إلى حقيقة هذه الصفة، فكل ما هو مذكور هناك ليست إلا آثاراً من الرحمانية وهي آلاء الله للإنس والجن بما هو ربٌّ لهما فيقول تعالى:

{فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} ويكرر هذه الآية ليهديهم إليه، لعلَّهم بالنظر إلى مثل هذه النعم التي تصل إليهم رغم كفرهم و إلحادهم يهتدون إليه تعالى.

ومن الجدير بالذكر ما ورد في قصَّة مريم عليها السلام:

{وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا، فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنْ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَانِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا}

فلعلَّ ذكر خصوص الرحمان باعتبار أنَّها قد لاحظت في صومها جانباً آخر من أجله نذرت وذلك هو التخلُّص ممن كانوا بصدد توجيه الاتهام لها . فربَّ صومٍ يكون لله باعتباره هو الرحيم لا الرحمن وربَّ صوم يكون لله وحده من غير توجُّهٍ إلى أيِّ أمرٍ آخر ، والأخير هو المستوى الراقي من العبادة .

وعليه نقول:

"إنَّ الرحمن يستعمل في النعم الكثيرة - من حيث العدد - الظاهرة في الدنيا، أكثر من ظهورها في الآخرة "

وأمّا الرحيم

فهي صفة مشبَّهة باسم الفاعل فتدلُّ على الثبوت، وتلازم عالم الاستقرار و الخلود، ولهذا تصاحب صفاتاً أخرى لها نفس الصبغة وهي: **"الغفور"** وقد لازمتها في خمسين مورداً، إلا أنّها قدِّمت على الغفور في مورد واحد.

وأيضاً صاحبت الرحيميَّة صفة **"الرءوف"** في أربع موارد من القرآن الكريم و صفة **"التواب"** في مورد واحد و **"الودود"** في مورد واحد أيضاً وهناك آية تقول:

{ سَلاَمٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ }

وهذا من أروع البيان ، للخصوصية الموجودة فيه، فالذي يسلِّم على هؤلاء الذين وصلوا إلى هذه المنزلة هو الربّ الرحيم ، وهل هناك لذَّة أفضل من هذه اللذة وما قيمة الحور والقصور في قبال هذا السلام المطلق من السلام وفي دار السلام للقلب السليم.

والحاصل:

عند التأمل فيها نعرف أنّها كالرحمن- **التي كانت للمبالغة**- تدلُّ على الكثرة، غير أن الكثرة في فعلان من ناحية **كميَّة**، كقوله تعالى:

{ **وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ}**

أي لا يصدر منه حتَّى ظلم واحد وذلك لا للعباد خاصة بل للعبيد الشامل للحيوانات و الجمادات بل الكافر أيضاً.

{إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلا آتِي الرَحْمَنِ عَبْدًا}

وأما الرحيمية فهي تكتب للمؤمنين خاصة وهم العباد لا العبيد. **قال تعالى:**

{وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ، الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ}

من خلال الآية الكريمة نستنتج أنَّ الرحمة مع وسعتها ولكنَّها لا تشمل إلا من يتَّصف بالأوصاف التالية:

1-**التقوى**.

2-إيتاء الزكاة.

3-الإيمان بالآيات الإلهية.

4-تبعيَّة الرسول الأمِّي.

وذلك:

لأنَّ صيغة **فعيل** قد لوحظ فيه الجانب الكيفي لا الكمِّي، حيث لا كمَّ في الأمور الثابتة.

ومن هنا قال في تفسير كنز الدقائق:

" قيل: ذكرُ الرحمة بعد العالمين إشارة إلى الرحمة في خلق العالمين و أنَّه خلقها على أكمل أنواعها و أتاها كلما احتاجت إليه و ذكرها قبل مالك يوم الدين إشارة إلى الرحمة في المعاد، يوم الجزاء"

وهذا القائل قد أرجع صفة "**الرحمن**" **إلى** "**رب العالمين**" التي جاءت قبلها، وربط صفة "**الرحيم**" **بصفة**"**مالك يوم الدين**".

رحمان الدنيا ورحيم الآخرة

فهو تعالى رحمان الدنيا و رحيم الآخرة كما ورد في الدعاء: **((يا رحمن الدنيا ورحيم الآخرة))**

و لكن باعتبار آخر، يكون سبحانه رحمان الدنيا والآخرة ورحيمهما، كما ورد في الحديث عن الإمام الرضا عليه السلام:

((يا رحمان الدنيا و الآخرة و رحيمهما))

وذلك بلحاظ الألطاف الخاصة و العامَّة، فالدنيا رغم أنَّها مملكة رحمانية الله تعالى، ولكن المؤمن فيها سوف تشمله رحيميته تعالى أيضاً، حيث الألطاف المعنوية النازلة عليه من خلال رحمة الله الواسعة و باب نجاة الأمَّة وهو الرسول الأكرم صلوات الله و سلامه عليه و آله ، كيف لا وقد جاء في شأنهم من خلال الخطاب لأبيهم إبراهيم عليه السلام و ذريته:

{ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ }لاحظ كلمة الرحمة فهي مطلقة غير مقيدة أصلاً وهي مع إطلاقها مفاضة عليهم فحسب ، وللتأكيد على أنَّ الرحمة المطلقة خاصَّة بهم جاء ذكرهم بعطف البيان أعني" **أَهْلَ الْبَيْتِ".**

وهذه التحلية إنَّما حصلت بعد ذلك التنزُّه الإلهي وإذهاب الرجس مطلقاً عنهم ثمَّ التطهير المطلق حيث قال:

{ **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمْ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا}**

الفضل و الرحمة

ثمَّ إنَّ هناك آيات كثيرة قد كرِّرت فيها صفتي الفضل و الرحمة كقوله تعالى:

{ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيم }

و الظاهر أنَّ الفضل تكون في الدنيا و الرحمة في الآخرة،كما تدل عليه الآية التالية:

{وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ}

وهذا من باب اللف و النشر المرتَّب، فالفضل متعلّق بالدنيا و الرحمة مرتبطة بالآخرة و لذلك قال تعالى:{ **وَفَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ...**}

وقال:{**الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ** }فهذا التفضيل إنَّما هو في الجانب الجسمي الظاهري وأيضاً العاطفي لا البعد الروحي المعنوي كما يشهد لذلك قوله تعالى:

{ **فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ** }

ومن الواضح إنّ الصلاح أمر نفسي باطني، يرتبط بروح المرأة، في قبال الفضل الذي هو أمر ظاهري راجع إلى عالم الدنيا وتنظيم شؤون الأسرة.

وقال تعالى :{ **لاَ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا** }

ولا تخفى عليك لطافة الآية حيث كرِّرت فيها كلمة الفضل.

فالأولى: إشارة إلى الجانب الدنيوي فهي **درجةً** فقط حيث أنَّ القاعدين معدودون من المؤمنين فلا يمنعون من فضائل الدنيا ما دام أنَّ الله يُعطيها للكافرين ومن هنا قال: "**وكلاً وعد الحسنى**" فلعلَّ الدرجة هي ما يمنح هؤلاء المجاهدين في الدنيا من منزلة و شأن ووجاهة.

و **الثانية:** إشارة إلى الجانب الأخروي الذي هو **أجر عظيم**فلاحظ النكرة الدالة على علو الشأن، مضافاً إلى الصفة أعني **عظيماً**.

ثمَّ وكأنَّ السائل يسأل ما هو مستوى هذا الأجر؟ فجواباً عليه يقول تعالى:

{ **دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا**} فانظر الفرق الكبير بين الموردين وتأمّل في "**منه**" **و** "**مغفرة**" **و** "**رحمة**" **ثم** "**آخر الآية**"**،** كلُّ هذه قرائن مقالية تؤكّد على أنَّ الفضل هنا فضل ثابت أخروي مرتبط برحيميَّته تعالى.

اختصاص الاسمين بالله

ويعتقد الكثير من المفسِّرين عدم جواز استعمال الرحمن لغير الله كما مرَّ في أقوال اللغويين ،وجواز استعمال الرحيم في غير الله للذي كثرت رحمته، استناداً إلى قوله تعالى:

{**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**}

ولكن:

الظاهر أنَّ الأمر ليس كذلك بل الصفتان مختصَّتان بالله و لا يصح استعمالهما في غيره تعالى وهذا ما يظهر من قوله تعالى { **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ** } اللهم إلا أن يكون الاستعمال مجازياً.

ومن هنا أرجع الإمام (ره) مقام الرحمانية ومقام الرحيميَّة إلى الوجود، إلا أنَّه قال:

"مقام الرحمانية الذي هو بسط الوجود، ومقام الرحيمية الذي هو بسط مقام كمال الوجود."

فالإيجاد على أيِّ حال مختص به تعالى في جميع مراحله ، بل مع الدقة سوف لا نرى مراتب حقيقيَّة للإيجاد أصلاً { **وَمَا أَمْرُنَا إِلا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ**}

وقال:

"إن الرحمة الرحيمية أيضا من الرحمة العامة وعدم شمولها الأشقياء من جهة نقصانهم لا من ناحية تحديد الرحمة، ولهذا كانت الهداية والدعوة عامة لجميع العائلة البشرية كما يدل عليه القرآن الشريف، وبنظر آخر: الرحمة الرحيمية أيضا مختصة للحق تعالى وليس لغيره فيها شركة "

أقول:

بما أنّ الدنيا دار الكثرة والتزاحم بين الأشياء ، فتكون الكثرة فيها كميَّة وأمّا الآخرة فهي دار قرار ومقام و ثبوت، فبطبيعة الحال تكون الكثرة فيها من ناحية الكيف قال تعالى:

{وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}

وقال الإمام الصادق عليه السلام:

((و إن رحمة الله ثوابه لخلقه)).

وهذا هو الفرق الجوهري بين **الرحمن و الرحيم.**

وأمّا القرآن الكريم فلم يستعمل هذه الصفة في غير الله إلا في موردٍ واحد وهو قوله:

{لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ}

ومن الواضح أنَّ هاهنا قد لوحظت عناية خاصة، فالرسول له هذه الصفات بما أنَّه مظهر الاسم الأعظم وهو المرآة الصافية لله تعالى، فانظر إلى الخطاب كيف ينتقل من العام إلى الخاص فهو **بالمؤمنين رءوف رحيم**، فالملاحظ هنا أنَّ الخصوصيَّة تكمن في أنَّهم مؤمنون ونفوسهم نفس الرسول الذي إن عُرف، عُرف الله تعالى، كما في تفسير صدر المتألهين في قول النبي صلى الله عليه وآله وسلَّم:

((من عرف نفسه فقد عرف ربه))

حيث قال: " إنَّ من عرف الإنسان الكامل وهو النبّي الأكرم محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم فقد عرف ربَّه، إذ

أنَّ الإنسان الكامل هو المثل الأعلى لله سبحانه و تعالى، فبمعرفته يعرف الإنسان ربَّه "
ثم قل:

"قال تعالى: " وفي أنفسكم أفلا تبصرون " و المراد منها نفوس الكمَّل من الأنبياء و المرسلين، لأنَّ نفسَ كلِّ واحدٍ منهم كلمة تامة نازلة من عند ربّ العالمين " كتاب مرقوم يشهده المقرَّبون "مشتملٌ على آيات الملك و الملكوت و أسرار قدرة الله والجبروت...))

و الله سبحانه قد منَّ على المؤمنين خاصّة لا على عامَّة الناس ببعث رسولٍ من أنفسهم . **قال تعالى:**

{ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ }

وبما أنّ رسول الله (ص)بالأصالة و أهل البيت(ع) بالتبع مظاهر رحيميَّة الله تعالى، فالرحيميَّة الإلهيَّة قريبة من المحسنين. **قال تعالى:{ إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنْ الْمُحْسِنِينَ}**

وليس المحسنون إلا المنتمين إليهم عليهم السلام، وتفصيل ذلك يطلب في محلّه فمن أراد أن يطّلع على المحسنين فليراجع الأحاديث الواردة في تفسير الآيات المباركة التي تشتمل على هذه الكلمة و كذلك قوله تعالى:

{هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ}

وقوله تعالى:

{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}

علماً بأنَّ الآية التي قبلها هي قوله تعالى:

{ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلاَء وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ }

والآية التي بعدها هي قوله تعالى:

{ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلاَ تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ، وَلاَ تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}

ثمَّ راجع تفسير أهل البيت لهذه الآيات وتعَّرفْ على التي نقضت غزلها، كي تعرف مستوى غورهم في القرآن الكريم وأنَّهم

بالفعل هم الذين يسمح لهم أن يمسوا القرآن الكريم الذي هو في كتاب مكنون. جعلنا الله و إيّاكم من المتمسِّكين بهم و المحشورين في زمرتهم، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

ثمَّ مع لحاظ الآية التي ذكرناها و قوله تعالى:

{ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاَهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ }

والرجوع إلى الحديث المنقول في كتاب كنز العمال مسنداً:

((عن أبي جعفر في قوله تعالى: " هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ "قال: هو أمير المؤمنين عليه السلام، يأمر بالعدل و هو على صراط مستقيم))

وأيضاً مانقل عن ابن عباس:((**هو علي عليه السلام**)) مع ملاحظة كلِّ ذلك يمكنك الوصول إلى كثير من الحقائق المتعلِّقة بأهل البيت عليهم السلام.

****

{ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }

كلمة الحمد في اللغة

وردت مادة الحمد في القرآن في صيغ مختلفة وهي:حمد - حميد - حامد - محمود - محمد -أحمد -حامد .

قال في مادة **حمد** من المفردات:

"الحمد لله تعالى الثناء عليه بالفضيلة وهو أخص من المدح، وأعم من الشكر، فإن المدح يقال فيما يكون من الإنسان باختياره ومما يقال منه وفيه بالتسخير، فقد يمدح الإنسان بطول قامته وصباحة وجهه، كما يمدح ببذل ماله وسخائه وعلمه. والحمد يكون في الثاني دون الأول، والشكر لا يقال إلا في مقابلة نعمة، فكل شكر حمد وليس كل حمد شكرا، وكل حمد مدح وليس كل مدح حمدا "

وقال ابن الأنباري:

"**حَمَدَ**" مقلوب "**مَدَحَ**" و المعنى واحد مثل "**جَفَبَ**" و"**جَبَذَ**"

أقول:

هناك موارد كثيرة وقع فيها القلب نذكر بعض الأمثلة منها :

"حوش" من "حشي" و "دوَن" من "دني" و "شكر" من "كشر" و "فكر" من "فرك" و "قفي" من "قيف" و "جيه" من "وجه"" فبالنسبة إلى المثال الأخير، الوجاهة و الجاه و الوجه من أساس واحد، قال تعالى:

{إِذْ قَالَتْ الْمَلاَئِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنْ الْمُقَرَّبِينَ}

رُوي عن ابن عباس أنه قال:

"الحمد لله كلمةُ كل شاكر، وإن آدم عليه السلام قال حين عَطس: الحمد لله. وقال الله لنوح عليه السلام:**{قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}وقال إبراهيم عليه السلام:{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ}وقال في** قصة داود وسليمان: **{وَقَالاَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىَ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ}وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم: {وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً}وقال أهل الجنة: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِيَ أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ} {وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}فهي كلمة كلّ شاكر"**

أهميَّة مقام الحامدين

إنَّ مقام الحامـدين مقام عظيم قد وصل إلى مستوى من العظمة والعلوّحتَّى قال عنهم الله :**{إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمْ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}** فهؤلاء هم الذين يمتلكون الجنَّة، لأنَّه تعالى يقول عنهم "**بأن لهم الجنَّة**" و لكن كلُّ تلك النعم تتوقَّف على اتصافهم بالخصال التالية:**{التَائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السائِحُونَ الراكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنْ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرْ الْمُؤْمِنِينَ }**

فلا إيمان ولا تبشير إلاّ بعد التوبة **والحمد** و سائر الصفات الواردة في الآية.

شمولية الحمد

ثم:

إن اللام في "الحمد لله " دالة على الإستغراق و الجملة ليست إنشائيَّة بل هي خبرية وتعني أنَّ جميع المحامد تختص بالله ، لأنَّ الحمد لا يكون إلا للكمال و الله هو الكمال المطلق و هو مصدر كل كمال و جمال، فلا يمكن أن يحمد غيره مهما حاول الإنسان أن يحمده. لأنَّ غيره لا يمتلك الكمال أصلاً فلماذا يحمد ،قال في أطيب البيان:

" إن غير الواجب الوجود من الممكنات، ليست مؤهلة لأن تحمد لا من حيث الصفات ولا من حيث الأفعال، لأنّها جميعاً صرف

الحاجة والفقر والفاقة وكل كمال يرجع إلى الله تعالى حيث أفاض إليها ذلك، ومن حيث الأفعال أيضاً لا استقلال لها بل هي كفعل باعانة الحق تعالى شأنه، ومن هنا نقول بأن الألف واللام في " الحمد " للجنس واللام " لله " للإختصاص وعليه تكون حقيقة الحمد بجميع أنواعه، مختصة بواجب الوجود المستجمع لجميع الكمالات الذي هو مفاد"

وعليه فلو وجَّه الإنسان حمدَه وثنائه إلى غير الله تعالى ، فحمِد الأشياء الأخرى التّى يراها ذات كمال ، فهو إذاً قد حمد الكمال من غير أن يشعر بذلك ، لأنَّ كلَّ كمال راجع إليه تعالى ، غاية ما هناك أنَّه غفل عن هذا الأمر ، وسيتنبَّه من غفلته عن استيقاظه في مماته { **لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ** }

ومن هنا تعرف مدى عمق كلام قال الإمام الباقر عليه السلام :

((فقل الحمد لله.. فما من حمدٍ الا و هو داخل فيما قلت)).

المحمود الأحمد

ثم قال :

"ولو أردنا أن نتنزل من هذا المستوى إلى مستوى أدنى، وأردنا أن نسري الحمد في الممكنات، فمقام الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته الكرام هم الذين يستحقون الحمد، ولذلك قال تعالى في شأنه: " وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا" وذلك لأن كل فيض نازل على الممكنات في الدنيا والآخرة فهو من هذا البيت وهم العلّة الغائية للموجودات، ولا يخفى أن الشفاعة الكبرى من جملة مصاديق المقام المحمود ولهذا سمّي بأحمد ومحمود ومحمّد " .

و السر في إطلاق تلك الأسماء عليه، يرجع إلى ما سنبيِّنه:

يقال له "**محمود**" لأنَّه يُحمد، "**ومحمد**" حيث كثُرت خصاله المحمودة و أيضاً لأنَّه وُجد محموداً وأمّا "**أحمد**" فلقوله تعالى:

{ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ }فكأنَّ الآية تريد القول بأنَّه صلى الله عليه وآله هو **أحمد** (أي أكثر **حمداً**)من عيسى و غيره من الأنبياء ، وكلُّ ذلك لا ينافي أن تكون تلك الأسماء أعلاماً للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله و سلَّم.

وأمّا أصل هذه التسمية فهو راجع إلى بداية خلق نوره، فالأحاديث تؤكّد على ذلك. **فقد ورد في** تفسير فرات ابن إبراهيم الكوفي:

((عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الله تبارك و تعالى كان و لا شئ فخلق خمسة من نور جلاله و اشتق لكل واحد منهم اسما من أسمائه المنزلة فهو الحميد وسمّاني محمَّدا...))

الحميد

ولنتحدث عن صفة الحميد المختصة بالله تعالى:

لقد وردت هذه الصفة في موارد مختلفة، وأكثر ما جاءت، فهي مرافقة لصفة "**الغني**" الذي هي كالدليل على صفة الحميد. وهذا يؤيِّد ما بيَّنا من أنَّ الحمد مختصٌّ به وهو بمعنى الحامد أو المحمود و يجوز أن يكون بالمعنيين، كما سنشير إلى الشواهد الدالَّة على ذلك. و السر في إطلاق الحميد عليه تعالى هو أنَّ الكل فقير إليه و هو الغني بالذات:

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}

ومرتبة غناه تعالى مطلقة لا حدَّ لها ولهذا يقول بعد تلك الآية :**{إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ، وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ}**

وقال أيضاً:**{ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}**فمادام أنَّ الإنسان أيضاً هو مظهر لله تعالى بل هو أبرز المظاهر، فإذا شكر الله، فهو يشكر لنفسه يقول:

{وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ}

وفي دعاء جوشن الكبير:

((يا خير ذاكر ومذكور يا خير شاكر ومشكور يا خير حامد ومحمود يا خير شاهد ومشهود يا خير داع ومدعو يا خير مجيب ومجاب يا خير مونس وأنيس يا خير صاحب وجليس يا خير مقصود ومطلوب يا خير حبيب ومحبوب))

وأيضاً ورد في مقطعٍ آخر من الدعاء:

((يا خير الحامدين))

فمن أراد أن يحمد الله بقوله:**" الحمد لله رب العالمين "**، ينبغي أن يقصد من هذا الحمد، نفس حمد الله تعالى الذي حمد به نفسه. وفي دعاء الإمام السجّاد عليه السلام:

((بسم الله كلمه المعتصمين و مقالة المتحرزين و أعوذ بالله من جور الجائرين و كيد الحاسدين و بغى الطاغين و أحمده فوق حمد الحامدين...))

وأيُّ حمد هو فوق حمد الحامدين؟ ليس هو إلا حمده لنفسه تعالى شأنه .

وفي دعاء آخر :

((حمدا يفوق على جميع حمد الحامدين، و يعلو على حمد كل شيء، و يفخم و يعظم على ذلك كلّه و كلمّا حمد الله شيء، و الحمد لله كما يحب الله أن يحمد))

و أمّا السر في أنَّه سبحانه صار خير الحامدين و خير حامد و محدود و خير ذاكر و مذكور، هو إن

الحمد مادام أنَّه يرتبط بمعرفة كمال المحمود ولا يعلم كمال ذاته تعالى إلا هو، فهو خير حامد ومحمود وعلى هذا يكون خير شاهد ومشهود ومن هنا قد فسّر قوله تعالى **"و شاهدٍ و مشهود" بذلك.**

وقال السيد المحقق الداماد رضوان الله تعالى عليه في القبسات:

"أفضل مقامك في الحمد، أن تجعل قسطك من حمدك لبارئك، قُصيا (قصوى) مرتبك الممكنة من الاتصاف بكمالات الوجود كالعلم والحكمة والجود والعدل مثلا فيكون جوهر ذاتك حينئذٍ أجمل الحمد لبارئك الوهاب سبحانه، فإنَّك إذن تنطق بلسانك الحال كلَّ صفةٍ من تلك الصفات أنَّها فيك ظلّ صفته سبحانه"

التوحيد الأفعالي

من أهم مصاديق التوحيد هو التوحيد الأفعالي، بمعنى أنَّ جميع الأفعال من غير استثناء تُنسَب إلى الله تعالى فلا حول و لا قوَّة إلا بالله العلي العظيم، وهذا الأمر مضافاً إلى الأدلّة العقلية الكثيرة و الطريق الشهودي، مستند إلى آيات كثيرة جداً، نتطرَّق إليها حين تفسيرها إن شاء الله تعالى .

قال الإمام قدس سرّه:

"ومن تجلت في قلبه الوحدة، فيحجب عن الخلق وينسب جميع الأفعال إلى الحق، والعارف المحقق يجمع بين الوحدة والكثرة وفي حال أنه ينسب الفعل إلى الحق من دون شائبة مجاز ينسبه في نفس الحال إلى الخلق بلا شائبة مجاز "

ثمَّ استشهد بشواهد من الذكر الحكيم، كقوله تعالى:

{فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}والآية الشريفــة قد نفت الرمي عن الإنسان و في نفس الوقت أسندته إليه. وقال تعالى:

{أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا، وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا، فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا، وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا}

فلاحظ كيف أسند العيب إلى نفسه في " **فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا** " و أسند الخير إلى الله في "**فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا** " وعندما كان لإرادة العبد دور في تحقق الفعل بإذن الله قال: " **فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا**"

وعليه قال:

" فالرب في الحمد لله رب العالمين، لعله من الأسماء الفعلية بمناسبة مقام القيام وهو مقام التوحيد الأفعالي، وفي الركوع من الأسماء الصفاتية بمناسبة أن الركوع، مقام توحيد الصفات وفي السجود، من الأسماء الذاتية بمناسبة أن السجود مقام توحيد الذات، والتسبيح والتحميد الواقعان في كل مقام يكونان مرتبطين بذلك المقام."

رب و العالمون في اللغة والاصطلاح

"الرب في الأصل التربية وهو إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حد التمام، يقال ربَّه وربّاه و ربه "

يستفاد من ذلك أنَّ الحركة التكاملية للعالمين هي في ضوء ربوبيته تعالى. وقيل أنَّه يعني: المالك لتدبيرهم ، والمالك للشيء يسمى ربه، ولا يطلق هذا الاسم إلا على الله وأما في غيره فبقيد، فيقال: رب الدار ورب الضيعة.

ثمَّ إنَّ ينبغي أن نجيب على السؤال التالي:

ما هو المقصود من ربِّ العالمين ؟ فمن هو **"ربّ"** و ما هي **"العالمين"** ؟

نقل عن ابن عباس أنَّه قال:

" العالمون، الجنّ والإنس، دليله قوله تعالى:" لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً "ولم يكن نذيراً للبهائم "

أقول ويرد عليه نقضاً قوله تعالى:

{ إِنَّهَا لإِحْدَى الْكُبَرِ، نَذِيرًا لِلْبَشَرِ، لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ}

فهنا قد صرَّح بأنَّ القرآن نذير للبشر ، فربَّ قرينة تصرف الكلمة عن معناها الحقيقي، فحينئذٍ يجب مراعاتها في النطاق الخاص مادام هناك شواهد أخرى تعمم الكلمة كما هو فيما نحن فيه.

و الجدير بالذكر أنَّه قد ورد في خصوص الإنس و الجن قوله تعالى:

{فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }والظاهر أن الخطاب للإنس و الجن كما تشير إلى ذلك بعض أحاديثنا.

عالم الخلق وعالم الأمر

أقول:

من خلال الآيات الكريمة نستنتج أنّ العالمين تتلخص في:

عالمَين رئيسيين، عالم الخلق و عالم الأمر، فعالم الخلق يشمل جميع الموجودات الماديَّة من السماوات والأرض و الشمس و القمر والنجوم وغيرها حتى الملائكة.

وعالم الأمر فهو عالم آخر يختلف تماماً عن عالم الخلق،و إلى ذلك يشير قوله تعالى:

{ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ }

ولعلَّ قوله تعالى:

{ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً }إشارة إلى ذلك العالم. وأيضاً عندما يتحدَّث عن نزول القرآن الكريم يقول:

{ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ، فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ، أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ، رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ }

فالأمر قد قيِّد بالعندية حيث قال " **أمراً من عندنا** "، كما جاء في الآية السابقة حيث قال "**من أمر ربي**" وقال تعالى:

{ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ }{ فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لاَ يَسْأَمُونَ }

فعندما ننظر إلى قوله تعالى:

{ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ }

حيث قسمّ الناس إلى الهابطين وإلى الهداة المرسلين من الله تعالى لنجاة المتورطين في الدنيا،و نتأمَّل أيضاً في قوله تعالى:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ...}

حينئذٍ نصل إلى عمق قوله تعالى:

{ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ، وَمَا أَمْرُنَا إِلا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ}والسر في أنّ عالم الأمر واحد، لأنَّه عالم خارج عن إطار الطبيعة و المادة التي تحكمها الكثرة و التعدد و الإختلاف.

وقال تعالى:

{ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }فما هو المقصود من السماوات ؟ وما المقصود من الأرض ؟

ربَّما هما إشارة إلى العالميَن، الأمر و الخلق كما يشهد لذلك تكرار "**رب** "،والآية حينئذٍ تساوق قوله تعالى:

{ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ }

مضافاً إلى ما قلنا ، لو تأملنا في قصّة سحرة فرعون و إيمانهم بالله، سوف ينفتح لنا من خلاله بابٌ آخر يعرِّفنا على روح العالمين.

رب موسى وهارون

إنَّ الله سبحانه عندما بيَّن قضيَّة موسى وهارون ومواجهتهما لفرعون و السحرة يقول:**{ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ، قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ، رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ }**والآيات بنفس الترتيب قد كرِّرت في سورة الشعراء، كما أنَّ هناك ترتيبٌ معاكس في قوله تعالى:

{ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى}ولربَّما هو لأجل ما سنبيِّنه فيما بعد من أنَّهما نفسٌ واحدة.

و هاهنا سؤال يطرح نفسه وهو كيف وصل السحرة إلى هذا المستوى من المعرفة ؟ وما هو السرِّ في قولهم **"رب موسى و هارون "؟**

هل المقصود هو مجرد بيان أنَّنا آمنّا بالرب الذي يعتقد به موسى وهارون و ذلك في قبال الأرباب المتفرقين، و أيضاً ما يدَّعيه فرعون حيث يقول " **أنا ربّكم الأعلى "؟**

أقول بالتدبُّر في الآية نستنتج ما يلي:

إنَّ السحرة قد تعرَّفوا على ربِّهم الحقيقي من خلال كلام موسى عليه السلام عندما طلب منه فرعون أن يعرِّف ربَّه:

{ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى }وهذا الخطاب يدلّ على أنَّ موسى وهارون كليهما كان لهما الدور في مواجهة فرعون وهذا ما يستفاد من تثنية الضمير، وأما إفراد المخاطب فلعلَّه من أجل أنَّ موسى خاصّة هو المرسل إلى فرعون فهو الواجهة، رغم أن هارون هو لسانه الصادق، وفي الجواب:

{ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى}و موسى أيضاً يتحدَّث باسم نفسه و باسم هارون أخيه، وهو يبيِّن الخلق ثمَّ الهداية. فهنا أمران قد ركَّز عليهما موسى (ع):

1-أنَّ ربّه هو الذي أعطى كلَّ شيء خلقه، فجميع الموجودات في السماوات و الأرضين مخلوقة له تعالى، ولها قدَرٌ خاص من الخلق،كما هو المستفاد من قوله **"خَلْقَه"**، حيث أن الضمير راجع إلى الشيء و هذا هو عبارة أخرى لقوله: **"إنا كلّ شيء خلقناه بقدر"** .

2-وهو الجانب الآخر المهم من الربَّ الذي من أجله أطلق الربّ عليه، كما مرَّ في المعنى اللغوي، حيث أنَّه لم يترك الأشياء بعد خلقها سدى، بل هداها و أولو الأمر هم المسؤولون عن أداء هذه المهمَّة الخطيرة، والكلّ حقيقة واحدة و نور واحد وهم الذين قال عنهم سبحانه **"وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر"** وهذه الحقيقة قد بيِّنت في قوله تعالى:

{ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى، وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى } فتشمل الهداية التكوينية المسماة بالهداية بالأمر و الهداية التشريعية التي هي في مجال

التشريع و التقنين.

وهذا ليس هو لسان موسى فحسب بل هو منطق جميع الأنبياء. قال تعالى عن لسان إبراهيم الخليل عليه السلام:

{ قَالَ أَ فَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ، أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ،فَإِنَّهُمْ عَـدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ، الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِين }

و ينبغي أن نعلم بأنَّ البعد الهدائي للنبي، إنَّما هو راجع إلى ولايته، لا نبوَّته فهو كنبي منذرٌ فحسب و كوليّ فهو هادٍ، ومن هنا صارت الولاية مستمرة دون النبوَّة وقد شرحنا هذا الأمر في كتابنا الأنوار الإلهيَّة فراجع.

قال تعالى:

{وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ }

ومن هنا تعرف كيف أكّد السحرة على **"ربِّ موسى وهارون"** لأنّ هذا الربّ هو الذي أوصلهم إلى هذا المستوى من الإيمان حيث يقولون:

{ قَالُوا لاَ ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ، إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ } ثم وصلوا إلى مرتبة الشهادة التي هي من أعلى المراتب.

النبي و الوصي

و ربَّما هما إشارة إلى الدور الفعّال لكلٍ من النبي و الوصي في الهداية. ونحن نعلم بأنَّ موسى و هارون ليسا فردين من مجتمع قد انتهى أمده، بل هما يمثّلان مَثَلان لجميع الأنبياء و الأوصياء، خاصَّة النبي المصطفى صلى الله عليه وآله ووصيه علي بن أبي طالب، حيث نصب علياً خليفةً على المسلمين و منحه تلك المناصب التي كان يتحلّى بها هارون. ومن هنا نعرف مدى عمق كلام هؤلاء الذين كانوا سحرة فآمنوا.

وأيضاً نعرف السر الكامن في حديث السلسلة الذهبية الصادرة عن الإمام الرضا عليه السلام حيث قال:

((...عن إسحاق بن راهويه، قال: لما وافى أبو الحسن الرضا عليه السلام نيسابور و أراد أن يرحل منها إلى المأمون اجتمع إليه أصحاب الحديث، فقالوا له: يا ابن رسول الله، ترحل عنا و لا تحدثنا بحديث فنستفيده منك ! و قد كان قعد في العمارية فاطلع رأسه و قال: سمعت أبي موسى بن جعفر يقول: سمعت أبي جعفر بن محمد يقول: سمعت أبي محمد بن على يقول: سمعت أبي على بن الحسين يقول: سمعت أبي الحسين بن على يقول: سمعت أبي أمير المؤمنين على بن أبي طالب عليه السلام يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم يقول: سمعت جبرئيل عليه السلام يقول:سمعت جل و عز يقول: لا اله إلا الله حصني فمن دخل حصني أمن من عذابي.فلما مرت الراحلة نادانا: بشروطها و أنا من شروطها))

فلولا هذه الشرط لا تكون هناك قيمة لتلك الكلمة .

القرآن مظهر لربِّ العالمين

من الواضح أنَّ القرآن الكريم و إن كان له الأثر التكويني في جميع الكون، إلا أنّه مظهر هداية الله سبحانه و تعالى التشريعيَّة :

{ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنْ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ...}

مع ذلك فهو من أبرز مظاهر ربِّ العالمين. **قال تعالى:**

{وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينِ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنْ الْمُنْذِرِينَ }

وقال:

{ألم، تَنزِيلُ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ }

وقال:

{ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ، فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ، لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ، تَنزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ }والوصف أعني "ربّ العالمين" يُشعر بأنَّه جاء للتعليل أي أن الله تعالى - لكونه ربّ العالمين - نزَّل القرآن الكريم من الكتاب المكنون، على قلب الرسول صلى الله عليه وآله وسلَّم.ولمكان هذه الهداية التشريعيَّة، قال تعالى:

{ قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ }

عالم الآخرة من العالمين

وأمّا الآخرة فهي غير منفصلة عن الدنيا الذي تتحقق فيها الأعمال من الصلاة والنسك و غيرها حيث أنَّ الحياة الدنيا هي توطئة و تمهيد للآخرة الذي هو اليوم العظيم:

{ أَلاَ يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ، لِيَوْمٍ عَظِيمٍ، يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ }

و الجدير بالذكر أنَّ افتتاح الأمر هناك بالحمد لله رب العالمين واختتامه أيضاً بذلك، قال تعالى في توصيف أهل الجنَّة:

{ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }

ليس ذلك إلا لأنَّ جميع العالمي واقعون تحت ظل ربوبيته تعالى فهو الله الخالق و المالك و المدبر.

ولا تظنَّن بأنَّ العوالم منحصرة بما نعلمها نحن، بل قد ورد في الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام: **((بل و الله قد خلق ألف ألف عالم))**

والحاصل أنَّه حينما نتلفَّظ بهذه الآية أعني: **{ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }** ينبغي أن نلاحظ **-مضافاً إلى ماسبق-** الأمرين التاليين:

أ: إنَّ عالم الخلق مظهر ربوبية الله تعالى.

ب: إنَّ التوحيد والتمجيد لله تعالى فقط، والإقرار بأنَّ الخالق والمالك إنَّما هو الله لا غير.

إشراقة

وفي الختام نذكر كلام العارف الإلهي الإمام (قدس سره) تتميماً للفائدة:

" ألا ترى أن عليك أن تتوب من قولك وأنت تقف أمام الله قبل الدخول في الصلاة " إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين " فهل وجوهكم متوجهة إلى فاطر السماوات والأرض ؟ هل أنتم مسلمون وخالصون من الشرك ؟ هل صلاتكم وعبادتكم وحياتكم ومماتكم لله ؟ ألا يبعث على الخجل بعد هذا أن تقولوا في الصلاة الحمد لله رب العالمين ؟ فهل حقاً تقرّون بأن المحامد كلها لله ؟، في حين أنكم تقرّون بالحمد لعباده، بل ولأعدائه ؟، أليس قولكم رب العالمين يكون كذباً لأنكم تقرّون في الوقت نفسه بالربوبية لغيره تعالى في هذا العالم، أفلا يحتاج ذلك إلى التوبة والخجل "؟!

****

{ الرَّحْمَن الرَّحِيمِ }

التكرار

عند ملاحظة الآية المباركة و الآيات التي قبلها، نتعرَّف على العلاقات و الارتباطات الموجودة بين أمورٍ مختلفة من أهمِّها الارتباط بين الربوبيَّة الإلهيَّة وبين رحمته تعالى. ومن هنا نشاهد أنَّ الرحمة قد جاءت بعد الربوبيَّة مباشرةً، حيث قال تعالى:

{ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الرَّحْمَان الرَّحِيمِ}

وكقاعدة عامَّة لكلِّ من أراد أن ينجح في التربية، ينبغي له أن يُقرن التدبير والتربيَّة بالرحمة فهو تعالى ربُّ العالمين وعلى ضوئه هو الرحمن الرحيم، فقد دبَّر و أدار العالمين أحسن تدبير برحمانيته و رحيميته لا بصفاته الأخرى.

ما هو السر في تكرار الرحمن الرحيم ؟

ذكر الإمام الخميني (قدس سرّه) كلاماً شرحه هو:

" إنَّ هناك نوعين من الرحمانية والرحيمية، ذاتية و فعلية. والله سبحانه قد جميع الآيات الآفاقية والأنفسية في كتاب التدوين أعني القرآن الكريم كما مرَّ،و جعل جميع الآيات التكوينية - سواء التي هي مظاهر رحمانيتة تعالى أو رحيميته الذاتية و الفعلية - جعلها في أم الكتاب.

ففي" بسم الله الرحمن الرحيم" هما صفتان لله تعالى الذي هو اسم للذات الإلهيَّة فهما ذاتيتان، وحيث أنَّه ربّ العالمين فهو الرحمن الرحيم و **"العالمين"** تشير إلى عالم الكثرة والتعدد ، فتحقَّق الانتقال من الذات إلى الفعل وهاتان الصفتان - حينئذٍ - تشيران إلى رحمة الله الواسعة التي انبسطت على جميع عالم التكوين، فهما صفتا الفعل.

وعليه:

فربوبية الله هي في الواقع تقع في النظام الطولي بعد الحمد. فمن خلال الحمد ظهرت الربوبية ومن خلال الربوبية ظهرت الرحمانية والرحيمية الثانية ومن خلال الرحمانية والرحيمية الثانية ظهرت المالكية ليوم الدين.**{ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}**

الرجوع إلـى الله

هذه صفة الرجوع حيث يقول **إنا لله وإنا إليه راجعون و** يعبر عنه الإمام بالقبض بعد البسط، بمعنى أنَّه بعد ما انبسط الوجود وانتشرت الرحمة على جميع الموجودات من خلال خلق الأشياء، فالآن الرحمة سوف تجتمع مرة ثانية فترجع إليه.

و متى يكون ذلك ؟

في يوم الدين !

فمالك يوم الدين هو عالم القبض بعد البسط أو الإجمال بعد التفصيل ومن هنا نعرف السرّ في التعبير بيوم الدين، فربّما هو إشارة إلى تحقق الدين و جمعه بعد تفصيله و تشريحه. وقد فسَّر النبي الأكرم هذه الحقيقة بقوله:

((إنّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله و عترتي أهل بيتي لن يفترقا حتَّى يردا عليَّ الحوض))

فعند ورودهما على الحوض سوف يجتمعان. وقد شرح الإمام هذا المفهوم العرفاني في وصيَّته القيِّمة فراجع.وجاء في زيارة الجامعة الكبيرة:

((وإياب الخلق إليكم وحسابه لديكم))

وهذا لا ينافي قوله تعالى:

{إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ}

بل هما حقيقة واحدة فالرجوع، إلى الله لا يتحقَّق إلا بالرجوع إليهم عليهم السلام.

الإختصاص بيوم الدين

قال الإمام قدس سرّه: أمّا الاختصاص بيوم الدين:

" إمّا لأجل أن يوم الدين هو يوم الجمع، فلهذه الجهة مالك يوم الدين الذي هو يوم الجمع، مالك سائر الأيام المتفرقات، والمتفرقات في النشأة الملكية هي مجتمعات في النشأة الملكوتية، وإمّا لأن ظهور مالكية الحق وقاهريته تعالى مجده ، في يوم الجمع الذي هو يوم رجوع الممكنات إلى باب الله وصعود الموجودات إلى فناء الله "

وفي ذلك اليوم سوف ترتفع جميع الحجب النورانية والظلمانية وتتجلى مالكية الحق تعالى وقاهريته، فيصدر الخطاب عن المالك على الإطلاق:

{لِمَنْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} فليس هناك من يجيب إلا ذاته تعالى.

اختلاف القراءة

قالوا أنَّ فيه أربع لغات: **(مالِك ومَلِك ومَلْك)** حتّى قيل أنَّ «**مَلِك**» **أعمّ وأبلغ من** «**مالك**» **إذ كل مَلِك مالك**, وليس كل مالك مَلِكا، وقيل: «**مالك**» أبلغ لأنه يكون مالكاً للناس وغيرهم، فالمالك أبلغ تصرّفاً وأعظم، إذ إليه إجراء قوانين الشرع.

قال الإمام قدس سرّه:

" وما ذكره الطرفان ليس مما يحصل به الاطمئنان، وما في نظر الكاتب إن مالك راجح بل متعين لأنَّ هذه السورة المباركة والسورة المباركة (التوحيد) ليستا كسائر السور القرآنية بل حيث الناس يقرؤون هاتين السورتين في فرائضهم ونوافلهم وفي كل عصر من العصور يسمعها ملايين من المسلمين من مئات ملايين المسلمين وهم كذلك من مئات الملايين سابقيهم وهكذا بالتسامح ثبتت هاتان السورتان الشريفتان على هذا النحو الذي يقرؤونها من دون تقدم حرف وتأخره ومن دون زيادة حرف ونقصه عن الأئمة الهداة والنبي صلى الله عليه وآله."

ثم قال:

"وهذا الكلام الذي ذكرناه جار في كفوا أيضا لأن القراءة بالواو المفتوحة والفاء المضمومة... فحينئذ تكون قراءة "مَلِك" و "كُفْوا" بغير ما هو مشهور بين المسلمين ومسطور في الصحف، غلطاً "

أقول:

يريد الإمام من ذلك سيرة المتشرِّعة وهي حجَّة يعتمد عليها الفقهاء في إثبات بعض الأحكام الشرعيَّة أو الأمور التّي لها علاقة بالمسائل الشرعيَّة وتفصيله يطلب في علم الأصول.

الإحاطة القيوميَّة

هناك نوعان من الإضافة و المالكيَّة وهما **الاعتبارية و الحقيقيَّة.**

أمّا الاعتبارية فهي رغم كونها اعتبارية على أقسام بل درجات، وتسلسل بالنحو التالي:

1-مالكية الناس لمملوكاتهم من الأموال و العقار و غيرها.

2-مالكية السلاطين والحكّام لممالكهم و بلدانهم.

3-مالكية الإنسان أعضاءه وجوارحه.

4-مالكية الإنسان لقواه الظاهرية منها والباطنية.

5-مالكية النفس لأفعالها الذاتية التي هي من شؤون النفس وهي كثيرة منها إيجاد الصور الذهنية.

6-مالكية العوالم العقلية ما دونها، رغم كون تلك العوالم لها إشراف على ما دونها، فهي التي توجدها و هي التي تعدمها.

هذا:

وعندما نتأمّل في هذه الأنواع من المالكيَّة نشاهد أنَّها مع تنوُّعها يحكمها الحدود و الفقر الذاتي. وأما المالكيَّة الحقيقيَّة فهي تختلف تماماً حيث أنَّها تنحصر للغنِّي الذي لا يعتريه الفقر أبداً و هو الله تعالى، فلا انفصال و لا بينونة بين المالك و المملوك، والدليل على ذلك يتكوَّن من مقدمتين شأن جميع الأدلَّة العقليَّة وهما:

أ: إنَّ الممكنات التي قد ظهر في ناصيتها ذلّ الفقر هي محدودة بحدودٍ ومقدرة بقدر.

ب: كل ما كان محدودا بحدٍ، يكون بينه وبين فعله، بينونة وليس له إحاطة قيومية عليها.

ومن خلال المقدَّمتين نستنتج أنَّ:

جميع الأشياء متباينة مع أفعالها ذاتاً و لا إحاطة لها عليها.

وأما مالكية الله تعالى فهي بالإضافة الإشراقية والإحاطة القيومية، مالكية ذاتية حقيقية حقة ومالكيته لجميع العوالم و الموجودات على السواء من دون تفاوت أصلاً.

قال تعالى:{ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ}

وقال:{وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لاَ تُبْصِرُونَ}

وعن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال:

((وإيجاب ملك الآخرة له كإيجاب ملك الدنيا))

إلهامٌ عَرْشي

ثم إنَّ الإمام قدَّس الله نفسه قد ذكر موضوعاً لطيفاً سمّاه **"إلهامٌ عرشي"** فبيَّن فيه سرّ مجيء الأسماء الأربعة وهي **"الرب والرحمن والرحيم والمالك"** في السورة المباركة بعد الاسم الأعظم و هو " " .**قال:**

"ويمكن أن يكون هذا الاختصاص، لأن هذه الأسماء الشريفة الأربعة حملة عرش الوحدانية على حسب الباطن ومظاهرها الملائكة الأربعة المقربون للحق تعالى، فالاسم المبارك الرب باطن ميكائيل موكل بالأرزاق ومربي دار الوجود، والاسم الشريف الرحمن باطن إسرافيل منشأ الأرواح والنافخ في الصور وباسط الأرواح والصور كما أن بسط الوجود أيضا باسم الرحمن، والاسم الشريف الرحيم هو باطن جبرائيل الموكل على تعليم الموجودات وتكميلها، والاسم الشريف المالك هو باطن عزرائيل الموكل بقبض الأرواح والصور وإرجاع الظاهر إلى الباطن "

ومن هنا أيضاً تعرف السر في شمولية السورة لجميع من في الوجود، فالعرش هو الذي من خلاله تظهر جميع مراتب الوجود.

ثم ذكر تنبيهاً عرفانياً وهو يرجع إلى العلاقة بين هذه الأسماء من البعد التربوي و السر في تقديم الرب ثمَّ ذكر الرحمن فالرحيم بعده والسبب في تأخير المالك.قال إنَّه:

"إشارة لطيفة إلى كيفية سلوك الإنسان من النشأة الملكية الدنيوية حتى الفناء الكلي أو حتى مقام الحضور عند مالك الملوك "

فالإنسان في مسيره التربوي يقع تحت إشراف رب العالمين لأنَّه من العالمين ويكون سلوكه في إطار الزمان و المكان إلى أن يتحرر من عالم الطبيعة المتصرمة وينسلخ منها و يهاجرها، فينتقل إلى اسم الرحمن الذي هو ظهور الرحمة الرحمانية وهي المبسوطة، ثمَّ الرحمة الرحيمية التي هي مختصَّة، فهو إذاً انتقل من الظاهر إلى الباطن حتّى انتهى إلى اسم المالك حيث اضمحلال الكثرات وحصول الفناء والتخلُّص من الحجب ومن ثمَّ له أن يخاطب ربَّه بقوله **"إياك نعبد".**

ما هو الدين

قال الراغب في المفردات:

"والدين يقال للطاعة والجزاء واستعير للشريعة. والدين كالملة لكنه يقال اعتبارا بالطاعة والانقياد للشريعة قال: " إن الدين عند الله الإسلام" وقال: " ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه الله وهو محسن"

ورجوعاً إلى القرآن الكريم نستنتج أنَّ الدين يطلق على الحق و غيره كما قال تعالى:

{هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا}

وقال:

{وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ}

وفي قصَّة يوسف يقول تعالى:

{ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ}ومن المعلوم أنَّ دين الملك لم يكن هو الدين الحق.

وقيل أيضاً:

إنَّ معنى الدين هو الجزاء والحساب كما في قولهم " **كما تدين تدان** "وقال تعالى: " **فَلَوْلاَ إِنْ كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ**" يعنـي غير مـجزيّين بأعمالكم ولا مـحاسبـين." **كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ**"وفي الحديث: ((**الكيّس من دان نفسه**)) **أي حاسب**، وقال الإمام الصادق عليه السلام: في معنى مالك يوم الدين: ((**يوم الحساب**))

وهناك حديث شريف ورد في هذا المجال، ذكر في تفسير نور الثقلين وكثير من التفاسير، وقد ورد في المجامع الحديثية، ولكثرة فائدته نذكره بطوله:

((قال أمير المؤمنين عليه السلام: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: ألا أخبركم بأكيس الكيّسين وأحمق الحمقى، قالوا: بلى يا رسول الله. قال: أكيسُ الكيسين من حاسب نفسه وعمل لما بعد الموت، وإن أحمق الحمقى من اتّبع نفسَه هواها وتمنّى على الله تعالى الأماني، فقال رجلٌ: يا أمير المؤمنين وكيف يحاسب الرجل نفسه ؟ فقال: إذا أصبح ثم أمسى، رجع إلى نفسه وقال: يا نفس إن هذا يوم مضى عليك، لا يعود إليك أبدا والله تعالى يسألك عنه فيما أفنتيه، فما الذي عملت فيه ؟ أذكرت الله أم حمدتيه أقضيت حوائج مؤمن ؟ أنفست عنه كربة ؟ أحفظتيه بظهر الغيب في أ هله وولده ؟ أحفظتيه بعد الموت في مخلفيه ؟ أكففت عن غيبة أخ مؤمن بفضل جاهك ؟ أ أعنت مسلما؟ ما الذي صنعت فيه ؟ فيذكر ما كان منه، فإن ذكر أنه جرى منه خيرا، حمد الله تعالى وشكره على توفيقه وإن ذكر معصية أو تقصيرا، إستغفر الله تعالى وعزم على ترك معاودته ومحا ذلك عن نفسه، بتجديد الصلاة على محمد وآله الطيبين وعرض بيعة أمير المؤمنين عليه السلام على نفسه وقبوله لها وإعادة لعن أعدائه وشانئيه ودافعيه عن حقوقه، فإذا فعل ذلك، قال الله عز وجل: لست أناقشك في شيء من الذنوب مع موالاتك أوليائي ومعاداتك أعدائي))

قال الإمام في معنى الدين:

"المراد من الدين الشريعة الحقة، وحيث أن آثار الدين تظهر في يوم القيامة وتلقي الستار عن وجه الحقائق الدينية، فيحق أن يقال لذاك اليوم: يوم الدين، كما أن يومنا هذا هو يوم الدنيا لأنَّه يوم ظهور آثار الدنيا ولم تظهر صورة حقيقة الدين بعد، وهذا يشبه قوله تعالى: "وذكرهم بأيام الله "، وهي الأيام التي يعامل فيها الحق تعالى قوماً بالقهر والسلطنة، ويوم القيامة أيضا يوم الله، وكذلك هو يوم الدين أيضا لأنّه يوم ظهور السلطنة الإلهية ويوم بروز حقيقة دين الله))

أقول إنَّ الله سبحانه ربّما يعطي الملك لغيره في الدنيا،كما جاء في قوله تعالى:

{قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}

الطيف ما في كلمة "**تنزع** " من المعنى، فهو فعل الله سبحانه رغماً على العباد، حيث لا يرغبون في ترك الملك، ولا يختص إعطاء الملك للمؤمنين فحسب، بل ربَّما يعطي غيرهم ممن ينكرونه، لأنَّه لا قيمة للملك الدنيوي وما دام هو اعتباري، فهو كسراب يحسبه الظمآن ماءاً ولقد آتى الله الملك لنمرود حيث قال:

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّي الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنْ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنْ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ }

وأعلم أنَّ اليوم عبارة عن وقت طلوع الفجر إلى وقت غروب الشمس وقد يطلق اليوم على الساعة منه قال الله تعالى: { **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ** } وهو يوم تنصيب أمير المؤمنين خليفة، وجَمْعُ يومٍ أيام وأصله أيْوَام فأدغم.

وأما اليوم عند الله الذي هو خالق الزمان والمكان، يختلف تماماً من اليوم عندنا نحن الذين نعيش الفقر و الفاقة و المحدودية الزمانية و المكانية. **قال تعالى:**

{وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ}

وقال تعالى:

{يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنْ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ}

أســــــمـــاء القيامة

بعد عالم الدنيا، هناك عالمان أحدهما أهم من الآخر وهما:

1-عالم البرزخ أو الملكوت و يقصدون به عالم القبر.

2-عالم القيامة أو الجبروت.

وبما أن عالم القيامة هو عالم الخلود والبقاء الدائم فله بداية من غير نهاية. والقرآن الكريم تحدَّث عن كلّيات ذلك العالم من بداية خروج الناس من قبورهم إلى ما سيحدث بعد ذلك من المحاسبات الدقيقة ،كما أنَّ المفسرين الحقيقيين للقرآن - وهم أهل البيت عليهم السلام - قد شرحوا جزئيات ذلك العالم بالتفصيل.

أسما وصفات الآخرة

إنَّ الآيات التي وردت في القيامة و حوادثها تنقسم إلى قسمين رئيسيين:

الأولى: ما وردت في بيان صفات يوم الحشر والنشر وهي كثيرة.

الثاني: ما وردت في بيان حالات و صفات يوم القيامة، وذلك بعد استقرار الأمور من الحساب و السؤال و الصراط و الميزان وغيره.

والجدير بالذكر أنَّه بالنسبة إلى كلا القسمين قد أطلقت كلمة اليوم ولكن على نحوين:

فتارة يكون التعبير من خلال التوصيف ببيان جملة تبيِّن بعض خصوصيات ذلك اليوم.

وأخرى يبيَّن اسم ذلك اليوم.

وعلى هذا الأساس، تكون الأقسام أربعة، نبيِّنها بإيجاز حتَّى نصل إلى مفهوم يوم الدين، فنركِّز عليه أكثر:

فبالنسبة إلى الحشر و النشر:

الأسلوب الأول:

{يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ}

{يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا، وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا}

{يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ، وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ }

الأسلوب الثاني:

{ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ}

{فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ}

{وَيَاقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ}

أمّا بالنسبة إلـى القيامة:

الأسلوب الأوّل:

{ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ }

{يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا }

{إِ يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَالَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا}.

الأسلوب الثاني:

{وَلاَ يُكَلِّمُهُمْ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}

{وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ}

{ادْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ}

ولكن أكثر ما ورد في القرآن الكريم من أسماء ذلك اليوم هو: الآخرة أو اليوم الآخر و يوم القيامة**قال تعالى:**

{وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ}

{لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ}

يوم الدين

عندما نلاحظ تلك الأسماء، نعلم بأنَّ كلَّ اسمٍ له خصوصيَّة تختلف عن الاسم الآخر فمثلاً **"اليوم الآخر" و "يوم الآخرة"** يستعملان مع الإيمان بالله سبحانه و تعالى كما هو واضح لمن يراجع عشرات الآيات القرآنية، قال تعالى:

{ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ }

وأما يوم الدين الذي هو من أسماء يوم القيامة، قد استعمل في اليوم الذي يظهر فيه الجزاء و العقاب كما تظهر فيه الرحمة و الثواب، ولهذا أطلق عليه يوم الدين، قال تعالى:

{ وَقَالُوا يَاوَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ، هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ }

وهذه الآية هي إجمالٌ للتفصيل الذي ورد في القرآن الكريم لكلا الطائفتين أعني المذنبين المبتلين بالعذاب و المطيعين المنعَّمين بالنعيم.

وقال تعالى:

{ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ }

وقد استعملت في موارد أخرى منها:

اللعنة و العذاب

و اللعنة هي جزاء للعمل حيث أنَّها الطرد والإبعاد على سبيل السخط، وحيث صدرت من الله تعالى في الآخرة فهي إذاً عقوبةٌ، قال سبحانه:

{ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ }

كما أنَّ مصداق اللعن الإلهي المتمثّل في العذاب، سوف يظهر في ذلك اليوم.**قال تعالى:**

{ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ، يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ، ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ } فأهل النار سوف يفتنون بنفس الفتنة التي كانوا يوجدونها في حياتهم الدنيا، وهو من تجسُّم الأعمال يوم القيامة الثابت بالعقل و النقل. و عندما يبيِّن سبحانه

أكل و شرب أهل النار، يقول:

{ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ، لآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ، فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ، فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ، فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ، هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّين }

وأيضاً عند الحديث عن كتاب الفجّار و أنَّه في سجِّين، يقول سبحانه:

{ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ، كِتَابٌ مَرْقُومٌ، وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ، الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّين }

وقد عرَّف يوم الدين بذكر نموذج من صفاته حيث قال:

{ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّين، ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّين، يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ }.

نعم الأمر يومئذٍ لله حيث لا مجال لملكيَّة غيره. والآية قد وردت بنحو مطلق من غير تقييد، فينبغي إذاً أن نبحث في سائر الآيات، لعلَّ هناك ما يقيِّد فيستثني أناساً يملكون الشفاعة بإذن ربِّهم، فمادام الأمر لله وهم أولوا الأمر فلا ضير في شفاعتهم للذين يمتلكون الأرضيَّة المناسبة للشفاعة وهم الذين اهتدوا بهداهم في الدنيا.

ولأهميَّة هذا الموضوع من المناسب أن نفتح باباً قرآنياً فيه، من غير أن نخرج من مفهوم **يوم الدين** الذي هو موردٌ للبحث فنقول:

يوم الدين هو يوم الفصل

وهل للقرآن أن يبيِّن لنا معنى يوم الدين؟

نعم قد بيَّن سبحانه ذلك في قوله:

{ وَقَالُوا يَاوَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّين، هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ }

والفصل هو إبانة أحد الشّيئين من الآخر، ويقال انفصل القوم عن المكان أي فارقوه. و الفصل هو تفريق الحقّ من الباطل، و القاضي يفصل بين الناس بالحكم و القرآن هو قولٌ فصل. **قال تعالى:{ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ، وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ }**

وعليّ عليه السلام أيضاً هو الفيصل لأنَّه الفاروق بين الحق و الباطل. و في الحديث:

((عن ابن خالد، عن الرضا عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله و سلَّم: لكل أمة صدّيق و فاروق، و صدِّيق هذه الأمة و فاروقها علي بن أبي طالب))

فالآية تريد القول أنَّهم كانوا يكذِّبون بيوم الفصل.

فما هو الفصل ؟ وكيف كان تكذيبهم ؟

هذا ما يجيبه القرآن الكريم، حيث يبيِّن كيفية تكذيب ذلك اليوم. والظاهر من القرآن الكريم والأحاديث الشريفة إنّ يوم القيامة إنَّما سمِّي يوم الفصل، لأنَّه يفصل فيه بين الحق و الباطل، وخط الولاية من الخط المناوئ لها، و في ذلك اليوم، ليس هناك مجال أصلاً لطلب المساعدة من الناس، بل حّتى من الذين كانت بينهم صداقة وودّ في الدنيا، والميزان الحقيقي هنالك هو التقوى لا غير .قال تعالى:

{ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ، يَاعِبَادِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلاَ أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ }

إلاّ من رحم الله

ومن هنا جاء الاستثناء في قوله تعالى:

{ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ، يَوْمَ لاَ يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ، إِلاَّ مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ }

تأمَّل في كلمتي العزيز الرحيم، فلا عزَّة في ذلك اليوم إلا لله تعالى دون الموالي الذين كانوا يتظاهرون بالعزَّة، و بما أنَّه هو الرحيم، فسوف يترحَّم على عباده المخلصين من خلال من هو بالمؤمنين رءوف رحيم و هو الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله و الأئمَّة الهداة من آله الذين هم نفس ذلك النور.

وقد ورد الحديث التالي في الكافي:

((أحمد بن مهران عن عبد العظيم بن عبد الله الحسنى عن علي بن اسباط عن إبراهيم بن عبد الحميد عن زيد الشحام قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام، و نحن في الطريق في ليلة الجمعة: اقرأ فإنَّها ليلة الجمعة قرآنا فقرأت " إنَّ يوم الفصل كان ميقاتهم أجمعين يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً و لا هم ينصرون إلاّ من رحم الله " فقال أبو عبد الله عليه السلام: نحن و الله الذي رحم الله، و نحن و الله الذي استثنى الله، لكنّا نغني عنهم))

الإمام الصادق عليه السلام يريد القول بأنَّ ما ورد في الآية حيث يقول سبحانه " **يَوْمَ لاَ يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ** " لا تشملنا نحن حيث نغني عنهم، ومن الواضح أنَّهم لا يشفعون إلا لمن والاهم من شيعتهم.

رحمة الله

لا بأس بالدخول في ساحة أخرى لها ارتباط وثيق بما نحن بصدد بيانه وهي بيان موارد استعمال هذا الاستثناء أعني" **إِلا مَنْ رَحِمَ** "، فقد بيَّن سبحانه فلسفة خلق الإنسان و علَّة تكوينه حيث قال:

{ وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ، إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ }و الضمير

في "**ربك**" راجع إلى الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بدليل قوله تعالى في الآية التّي بعدها:

{ وَكُلاً نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ }

فقوله "**ربّك**" فيه عناية خاصّة إلى شخص الرسول صلى الله عليه وآله و أنَّ الرحمة صادرة من الله الذي هو ربّ العالمين عامَّة ورب الرسول خاصَّة، فالخلق إنَّما هو للوصول إلى الرحمة الإلهية المتجسِّدة في الذوبان في شخصيَّة الرسول الذي يمثّل أهل البيت عليهم السلام بل هم حقيقة واحدة وقد أثبتنا ذلك في أبحاثنا المختلفة فراجع، وهي - **أعني الوصول إلى الرحمة - العبادة** بالفعل لأنَّه تعالى يقول:

{ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُون }

وعلماً بأنَّ العبادة الحقيقيَّة لا تتحقّق إلا تحت ظلال تلك الدولة المباركة أعني دولة المهدي المنتظر عجَّل الله تعالى فرجه الشريف كما أثبتنا ذلك في كتابنا "**دولة المهدي**" ويدل على ذلك قوله تعالى:

{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ }

فحينئذٍ يمكنك أن تصل إلى عمق الآية التالية وهي:

{ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاَغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ }

ولاحاجة إلى التفصيل بعد هذا الوضوح فأدعوا القرّاء أن يتأمَّلوا أكثر في هذه الآيات لكي يصلوا إلى الترابط الموجود بينهما .

الأنبياء و الرحمة الإلهيَّة

قال تعالى:

{ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنْ الْمَاءِ قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنْ الْمُغْرَقِينَ }

هذه الآية أيضاً تنصبّ في نفس السياق الموجود في الآيات السابقة ، فذلك اليوم الذي قال عنه تعالى { **لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ** } قد استثني منه جماعة بإمكانهم أن يشفعوا بإذن الله كما مرّ وهم "**من رحم**" وقد جاء ذكرهم في هذه الآية أيضاً ، فهم الذين تخلَّصوا من ذلك الطوفان المُهلك ولكن لسائل أن يسأل عن ماهيَّة التخلُّص والنجاة المقصود من الآية ، هل هو خاصّ بمن ركب مع نوح في سفينته أم أنَّ الواقع أعمق ممّا نتصوَّر نحن؟

إذا أردنا معرفة حقيقة الأمر ينبغي لنا أن نستعرض الآيات التي وردت في شان نوح عليه السلام بل كلّ الأنبياء الذين لهم علاقة

وثيقة بهذا الأمر فنقول:

آمال الأنبياء

إنَّ الذي كان يطلبه نوح عليه السلام هو نفس ما كان يطلبه إبراهيم عليه السلام و سائر الأنبياء، حيث أنَّهم كلَّهم كانوا يمهِّدون لأجل من سيختم الله به النبوَّة وهو النبي الأكرم(ص) و أيضاً أوصياءه من أهل بيته عليهم السلام.

قال تعالى مبيِّناً مطالب إبراهيم الخليل عليه السلام من ربِّه :

{ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنْ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنْ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ{

وقال:

{ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }

فمن خلال هذه الآيات وعشرات من الآيات نستنتج أنَّ إبراهيم كان يترقَّب من سيأتي في المستقبل أعني خاتم النبيين وسيِّد المرسلين ، وهذا لا يختصُّ به بل جميع الأنبياء كانوا يسيرون على نفس المنهاج فكلّهم كان منتظراً لفرجهم مترقّباً ظهورهم كما تدلُّ على ذلك آيات و أحاديث، نبيِّنها في محلّها إن شاء الله تعالى.

فلنرجع إلى نوح عليه السلام وحالاته مع قومه وألطاف الله عليه، حتَّى نعرف المقصود من ما خاطب به ابنه حيث قال له: "**لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم**"

دعاء نوح(ع)

هذا ما يظهر من نداء نوح لقومه، حيث قال سبحانه:

{وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ، وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنْ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ، وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ، وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ، سَلاَمٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ، إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ، ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ }

وينبغي أن نتأمَّل في هذا الآية بحقّ، يقول سبحانه:

{ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ } فماذا يعني البقاء هنا ؟ هل البقاء في حين من الزمان الماضي ثمَّ الممات ؟ إن كان ذلك فكيف نفسِّر الآية التّي بعدها ؟

إن أردنا أن نتعرَّف على الحقيقة و الواقع، ينبغي أن نراجع الآيات الأخرى التي وردت على نفس النسق و القياس، والجدير بالذكر أنَّ الآية تشتمل على كلمة "**الآخرين** " في موردين إلا أنَّ بينهما اختلاف في كسر الخاء و فتحها.

يقول الراغب الإصفهاني:

"آخِر: يقابل به الأول وآخَر يقابل به الواحد. و يعبر بالدار الآخرة عن النشأة الثانية كما يعبر بالدار الدنيا عن النشأة الأولى"

أقول: والشاهد على هذا الأمر هو قوله تعالى:

{ قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ }فالأولون هم من بدأ الله بهم في الظاهر و الآخرون من ختم بهم، كما في الحديث الشريف:

((محمد بن يحيى عن علي بن الحسين النيسابوري عن إبراهيم بن أحمد عن عبد الرحمن بن سعيد المكي عن يحيى بن سليمان المازني عن أبي الحسن موسى عليه السلام قال: من زار قبر ولدي عليّ كان له عند الله كسبعين حجة مبرورة،قل:قلت: سبعين حجة !قل: نعم و سبعين ألف حجة، قال:قلت: سبعين ألف حجة !قل: ربّ حجة لا تُقبل. من زاره و بات عنده ليلة، كان كمن زار الله في عرشه، قال: نعم، إذا كان يوم القيامة كان على عرش الرحمن أربعةً من الأولين و أربعةً من الآخِرين، فأمّا الأربعة الذين هم من الأولين، فنوحٌ و إبراهيم و موسى و عيسى عليهم السلام، و أمّا الأربعة من الآخرين فمحمد و علي و الحسن و الحسين صلوات الله عليهم...))

والملاحظ في الآية الكريمة أنَّه تعالى بعد ذكر النجاة من الكرب العظيم الذي حظي به نوح و بقاء ذريته، يقول: " **وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ**" سلّم على نوح لا في هذا العالم فحسب بل في العالمين ماضياً و حالاً و مستقبلاً وذلك للإنجاز العظيم الذي حققَه و الشجرة المباركة التي غرسها، فتركّزت جذورُها في الأرض، وانتشرت فروعها في السماء، حتَّى شملت كافة المخلوقات و استوعبت جميع الكائنات، تؤتي أكلها كلَّ حين بإذن ربِّها.

ثمَّ في آخر المطاف، يشير سبحانه إلى من غرق من قومه، وهذا ربّما يعني أنَّه لا أهميَّة فيهم مادام قد تُرك عليه في الآخِرين، والمقصود من الترك هو الإبقاء و من الآخرين أي الأمم الذين يأتون فيما بعد.

وهذه الآية قد كرِّرت في موارد كثيرة بنفس الأسلوب، خاصَّة في سورة الشعراء، وذلك عن لسان أبي الأنبياء و هو إبراهيم الخليل عليه السلام، حيث يقول:

{ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ }فما هو هذا اللسان ؟ و لماذا يطلبه إبراهيم في آخر الزمان مادام هو غير موجود ؟ وهل هذا اللسان سوف يتحدَّث عن إبراهيم بما هو إنسان يعيش في عالم الدنيا، أم أنَّه لسان لمبدئه و لعقيدته و رؤيته الإلهيَّة المقدَّسة و خطّه التوحيدي، وهو ليس أحد أولاده من الأنبياء بل من خصوصيَّات هذا اللسان أنَّه في الآخِرين، فهو يمثّل جميع الأنبياء الذين كانوا قبل إبراهيم كما أنَّه ينطق باسم جميع الأنبياء الذين يأتون بعد إبراهيم، فقال تعالى:

{ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاً جَعَلْنَا نَبِيًّا}

و أروع آية تحلّ هذه العقدة وتكشف الحق كالشمس في رابعة النهار، هي الآية التي أتت بعد تلك الآية مباشرة، قال تعالى:

{ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا }

و هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالبٍ عليه السلام

في كنز العمّال عن محمد بن العباس عن السيارى عن يونس بن عبد الرحمان قال:

((قلت لأبي الحسن الرضا عليه السلام إنَّ قوماً طالبوني باسم أمير المؤمنين عليه السلام في كتاب الله عزّ و جلّ، فقلت لهم: مِن قوله تعالى "و جعلنا لهم لسان صدق علياً "فقال صدقت هو هكذا))

قال بعض من فسَّر الحديث:

"و معنى قوله لسان صدق أي جعلنا لهم ولدا ذا لسان، أي قول صدق و كلّ ذي قول صدق فهو صادق و الصادق معصوم و هو علي بن أبي طالب عليه السلام"

فلا تعجبنَّ من ذلك فإن استوعبت هذه الحقيقة، وإلاّ فاعلم أنَّ أسماءهم عليهم السلام تختلف تماماً عن أسمائنا نحن، فعليٌّ اشتقَّ من العليِّ، فتأمَّل في قول الإمام الرضا عليه السلام حيث قال: "**من قوله و جعلنا لهم لسان صدق علياً**" وهذا يعني الاشتقاق من ذلك.

والدليل عليه قوله تعالى:

{ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ، إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ }

وبهذا يمكننا الجمع بين ظاهر الآية المباركة حيث أنَّ الضمير راجع إلى نوح عليه السلام وبين باطنها المستفاد من الحديث التالي الذي نقله صاحب كتاب كنز العمال: محمد بن الحسين عن محمد بن وهبان عن محمد بن علي بن وخيم عن العباس بن محمد عن أبيه عن الحسن بن علي بن أبي حمزة عن جابر الجعفى انه سال جعفر بن محمد عليه السلام عن تفسير قوله تعالى " وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ" فقال عليه السلام:

((إنَّ الله سبحانه لما خلق إبراهيم،كشف له بصره، فنظر فرأى نوراً إلى جنب العرش فقال: إلهي ما هذا النور؟ فقال: هذا نور محمد، صفوتي من خلقي. و رأى نورا من جنبه، فقال: إلهي ما هذا النور ؟ فقال: نور علي بن أبي طالب عليه السلام ناصر ديني. و رأى إلى جنبهما ثلاثة أنوار فقال: إلهي ما هذه الأنوار ؟ فقيل له: هذا نور فاطمة فطمت محبيها من النار و نور ولديها الحسن و الحسين، قال: إلهي و أرى تسعة أنوار قد أحدقوا بهم قيل: يا إبراهيم هؤلاء الأئمة من ولد عليّ و فاطمة، فقال إبراهيم: إلهي بحق هؤلاء الخمسة إلاّ عرَّفتني مَن التسعة ؟ قيل: يا إبراهيم أوَّلهم علي بن الحسين و ابنه محمد و ابنه جعفر و ابنه موسى و ابنه علي و ابنه محمد و ابنه علي و ابنه الحسن و الحجة القائم ابنه. فقال إبراهيم: إلهي و سيدي أرى أنواراً قد أحدقوا بهم لا يُحصي عددَهم إلاّ أنت، فقيل: يا إبراهيم، هؤلاء شيعتهم شيعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام. فقال إبراهيم: و بما تعرف

شيعتُه، قال:بصلاة إحدى و خمسين، و الجهر ببسم الله الرحمان الرحيم، و القنوت قبل الركوع، و التختُّم في اليمين. فعند ذلك قال إبراهيم: اللهم اجعلني من شيعة امير المؤمنين قال: فأخبر الله تعالى في كتابه فقال: "و إنَّ من شيعته لإبراهيم "))

والحديث قد نقله الكثير من المحدِّثين. و الجدير بالذكر ما ورد في قوله تعالى:

{وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاً هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنْ الصَّالِحِينَ، وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاً فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ }

ثمّ يتوسَّع في هؤلاء الأنبياء فيقول:

{ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ،ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، أُوْلَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاَءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ }

وحينئذٍ يستنتج بقوله سبحانه:

{أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمْ اقْتَدِهِ قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ }

فما هو الذكرى، الذي يمثّل أجر الرسالة وما هي علاقة هذه الآية بقوله تعالي:

{قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ}

كل ذلك قد شرحناه في كتابنا دولة المهدي المنتظر فراجع .

"فإذاً من رحم الله هم الآخرون أعني محمَّداً وأهل بيته المعصومين عليهم السلام"

موسى و الرحمة

ومن عظيم الآيات ما وردت في شأن موسى عليه السلام حيث قال تعالى:

{ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا }

وهو يشبه قوله تعالى:

{ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا }

وقد مرَّ الحديث في معنى قوله تعالى "**ربِّ العالمين**" حول هارون عليه السلام. كما أنَّ الرحمة الإلهية التي وردت في الآية التالية قد فسِّرت بالإمام قال تعالى:

{ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ لِئَلاَ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ }

ففي الكافي بإسناده عن احمد بن محمد عن الحسين بن سعيد عن النضر بن سويد عن القاسم بن سليمان عن سماعه بن مهران:

((عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز و جل: " يؤتكم كفلين من رحمته، قال: الحسن و الحسين، "و يجعل لكم نورا تمشون به"قال: إمام تأتمّون به))

وهذا الحديث الشريف قد أخرجه كثير من العلماء فراجع مضانّها.

التوسل بالرحمة

على ضوء ما قلنا اتّضحت لك المناسبة الكبيرة بين قوله تعالى الرحمن الرحيم و مالك يوم الدين، حيث أنَّ من أراد أن يتخلّص من شرّ ذلك اليوم، لا بدَّ وأن يتوسَّل برحمته تعالى كما قال:" **إلا من رحم** " و لا يمكن ذلك إلا من خلال الارتباط بهم عليهم **السلام**. وسوف تعرف المناسبة بين قوله مالك يوم الدين و سائر الآيات التّي بعدها، خصوصاً قوله **"إهدنا الصراط المستقيم"** المتجسِّد في الولاية كما سنبيِّن لك قريباً إن شاء الله تعالى.

يوم الغدير يوم الفصل

إنَّ يوم الغدير هو اليوم الذي قد تميَّز فيه الحق من الباطل و الخبيث من الطيِّب و كمل الدين و تمَّت النعمة، ومن ثمَّ استمرَّت المسيرة إلى هذا اليوم بل سوف تستمرّ إلى يوم الدين، فعالم الآخرة ليس هو إلا استمرار لعالم الدنيا الذي يميَّز من خلاله الخبيث من الطيِّب. وقد ورد في هذا المجال حديث نقله العلاّمة المجلسي في بحاره عن مصباح المتهجِّد، إنّ أمير المؤمنين عليه السلام قال في خطبةٍ في يوم الغدير:

((إنَّ هذا يومٌ عظيم الشأن. فيه وقع الفرَج و رُفع الدُرَج، و صحَّت الحُجَج، و هو يوم الإيضاح و الإفصاح عن المَقام الصراح، و يومُ كمال الدين، و يوم العهد المعهود، و يوم الشاهد و المشهود، و يوم تبيان العقود عن النفاق و الجحود،و يوم البيان عن حقائق الإيمان، و يوم دحر الشيطان، ويوم البرهان، هذا يومُ الفصل الذي كنتم توعدون))

****

{ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }

قبل أن نتحدَّث عن الآية المباركة ينبغي أن نشير إلى:

مفهوم كلٍّ من العبادة و الاستعانة

أمّا العبادة:

"العبودية إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها لأنَّها غاية التذلل، ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله تعالى، ويقال طريق مُعَبَّد أي مُذَلَّل بالوطء، وبعير مُعَبَّدٌ مُذلل بالقطِران وعَبَّدْت فلاناً إذا ذلَّلته وإذا اتخذته عبداً، قال تعالى "أَن عَبَّدتَّ بني إسرائيل ".

وأمّا الاستعانة:

"العون المعاونة والمظاهرة يقال فلان عوني أي معيني، والتعاون التظاهر قال: "وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان" والاستعانةطلب العونقال " استعينوا بالصبر والصلاة"

فوائد

الآية المباركة تشتمل على أمور كثيرة، سواء على نحو الاستقلال أو قياساً بما سبقها من الآيات أو بما ستأتي بعدها. **أمّا بالنسبة** إلى الآيات الآتية فسوف نبيِّن العلاقة الموجودة بينها وبين تلك الآيات، عند البحث عنها إن شاء الله تعالى. **وأمّا بخصوص** العلاقة بينها وبين ما سبقتها وأيضاً ما يرتبط بالآية نفسها، إليك بعض الفوائد:

1-الالتفات و الهدف منه

حيث أنَّ الآية فيها التفات وانتقال من بيانٍ إلى بيان آخر، فمن الحري أن نتحدث عن الالتفات و الهدف منه بذكر نماذج مختلفة من القرآن الكريم، فنقول في تعريف الالتفات:

" هو الانتقال من الغيبة إلى الخطاب أو من الخطاب إلى الغيبة أو من الغيبة إلى التكلُّم "

ويستفاد منه للعناية الخاصة بالموضوع و هو باب وسيع جداً وقد ورد كثيراً في القرآن الكريم نكتفي بأمثلة لكلٍّ من الموارد الثلاثة:

1-من الغيبة إلى التكلُّم

قوله تعالى:

{ **وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ** } فرغم مجيء الفعل الأوَّل على صيغة الماضي الغائب و الثاني على صيغة المضارع إلا أنَّه تعالى قال **"فسقناه"** وصيغته هو التكلم مع الغير.

2-من الخطاب إلى الغيبة

قل تعالى:

{ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ } فبدأت الآية بذكر الضمير المخاطب أعني "**كُم**" " **يُسَيِّرُكُمْ** " ثمَّ استمرَّت بنفس النسق حيث جاء فيها "**كُنْتُمْ** " إلا أنَّ الضمير انقلب من المخاطب إلى الغائب حيث قال "**جَرينَ بِهِمْ**" واستمرَّت الآية على هذا السياق حيث قال "**فَرِحُوا** " إلى آخر الآية.

وقال تعالى:

{ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ } والآية كالسابقة حيث جاء "**وَمَا آتَيْتُمْ** " بنحو الخطاب ثمَّ انقلب إلى الجملة الاسمية التي تشتمل على الضمير المغايب أعني "**هم**".

3-من الغيبة إلى الخطاب:

وقال تعالى:

{**وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا**} تلاحظ أنَّ الآية تبدأ بقوله: "**وقالوا**" و هو فعل ماضٍ جاء للجماعة الغائبين و لكن انقلب إلى المخاطب حيث قال "**لقد جِئتُمْ**".

وقال تعالى:

{ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا * إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا }

فجميع الآيات السابقة التي كانت تبيِّن حالات عباد الله الذين يفجِّرون العين فيشربون منها، كانت على نسق الفعل الغائب إلى قوله "**و سقاهم**" فانقلبت الآية إلى المخاطب حيث جاء "**لكم** ".

الالتفات في أم الكتاب

الأسلوب الأخير أعني الانتقال من الغائب إلى المخاطب موجود في فاتحة الكتاب فبعد الآيات الأربعة السابقة التي كانت على سياق الغائب و التي بيِّنت فيها صفات الله سبحانه، تغيَّر السياق حيث انقلب إلى الخطاب ، وذلك في ابتداء الآيات التي جاءت لبيان حالات العبد أعني "**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ".

قال السيد الشبَّر رحمه الله في تفسيره الجوهر الثمين:

"وحسن الالتفات هنا أن إظهار مزايا المحمود يحسن عند غيره، بخلاف العبادة ونحوها، فإنّه ينبغي كتمانها عن غير المعبود، فناسب الخطاب، ولأنَّه أقرب إلى الإخلاص، والإشارة إلى قوله عليه السلام "أعبد كأنك تراه " والله تعالى لغاية

ظهوره كأنَّه حاضر مشاهد "

قال تعالى:

{ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِي فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ }

ومن هنا يمكننا أن نقول أنَّ من آداب عبادة الله تعالى هو حضور النفس في محضره، وفي غير ذلك لا تحصل العبوديَّة بمعنى الكلمة، وهل هناك من يمكنه أن يدَّعي الوصول إلى هذا المستوى من العبوديَّة ؟

وقال آخر:

" فممّا اختص به هذا الموضع أن العبادة والاستعانة ينبغي كتمانها عن غير المعبود المستعان لتكون أقرب إلى الإخلاص وأبعد عن الرياء. فالمناسب له طريق الخطاب، فلذا عدل إليه، ومنه التلويح إلى ما في الحديث: " أعبد الله كأنك تراه ". إذ العبادة الكاملة هي ما يكون العابد حال اشتغاله بها مستغرقا في الحضور كأنه مشاهد لجناب معبوده، فظن أنه وصل إلى مقام المقربين " .

أقول: وما دام لم يخصص العبادة لنفسه بل شارك مع نفسه الغير فلا شائبة رياء فيها أصلاً.

قال آية الله السبزواري رضوان الله تعالى عليه:

"وإنّما ذكر " نعبد " و " نستعين" بلفظ الجمع، ولأجل تصغير ما يصدر عنه من العمل، فإذا التفت إلى أن الكل يعبدونه ويستعينون به عزّ وجل فلا يغتر به ولا يحسب لنفسه وزنا "

وقال السيِّد الشبَّر قدِّس سرُّه في تفسيره الجوهر الثمين:

"وجعلها مع الغير كبيع الصفقة، إما أن يقبل الجميع، أو يرد الجميع، وهو تعالى أكرم من أن يرد الجميع، إذ لا بد من وجود عبادة مقبولة فيهم، كإمام الزمان فيقبل الجميع، وللاحتراز عن الكذب، لو انفرد في ادعائه قصر خضوعه التام، أو استعانته عليه تعالى" .

قال الفيض الكاشاني رحمه الله:

"قيل: المستتر في نعبد ونستعين للقارئ ومن معه من الحفظة وحاضري صلاة الجماعة أوله ولسائر الموحدين أدرج عبادته في تضاعيف عبادتهم وخلط حاجته بحاجتهم، لعلها تقبل ببركتها وتجاب إليها ولهذا شرعت الجماعة ".

وقال آية الله السبزواري رضوان الله تعالى عليه:

"والأولى أن يقال: إن لفظ الجمع فيهما للتحريض إلى حفظ وحدة المجتمع الذين يعبدونه تعالى ويستعينون به، فكما أنهم مجتمعون في وحدة المعبود والعبادة والمستعان به، لا بد وأن يكونوا كذلك في جميع شؤونهم، كما تدل عليه آيات كثيرة.

وهي عبارة أخرى عن الاعتقاد بـ " لا حول ولاقوة إلا بالله " والعمل بمقتضاه في جميع الأحوال "

2-الحصر المستفاد من إياك

إياك منصبوبة لوقوع الفعل عليها والكاف في إياك موضعها الخفض حيث أضيفت إيّا إليها، وإيا اسم للضمير المنصوب إلا أنّه ظاهر يضاف إلى سائر المضمرات نحو: إياك ضربت وإياه ضربت وإياي ضربت، وفي بيان السرّ في تقديم المعمول قد ذكرت أمورٌ كثيرة:

1-الحصر:

والحصر أو القصر من مفردات علم المعاني وهو تخصيص شيء بشيءٍ وهو يشتمل على مفهومين مختلفين أحدهما مفهوم إيجابي والآخر مفهوم سلبي، وهناك طرق كثيرة لذلك كاستعمال لفظ "**فقط**" أو "**وحده**" **أو**"**لا غير**".

ولكن الأكثر استعمالاً هي الأقسام الأربعة التالية وهي:

الف: الحصر بحروف العطف وهي "**لا**" و"**بل** " و "**لكن** ".

ب: **الحصر بإنما**.

ج: الحصر بإلاّ إذا كانت الجملة في سياق النفي.

د: الحصر من خلال تقديم ما حقه التأخير.

والجدير بالذكر أنَّه ورد في القرآن الكريم الحصر في خصوص عبادة الله سبحانه تعالى بجميع أساليب الحصر وذلك لأهميَّة التوحيد في العبادة، نشير إلى أهمِّها:

وحَده

وردت هذه الكلمة الدالة على الحصر في خصوص عبادة الله تعالى في آيات مختلفة إليك بعضها:

قال تعالى:

{ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنتَ مِنْ الصَّادِقِينَ } وقال تعالى: {ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ}

الحصر بلكنّ

قال تعالى:

{ قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلاَ أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ }

فالآية المباركة تنفي ربوبيَّة غير الله و تثبت ربوبيَّته تعالى وذلك باستخدام حرف "**لكن**".

الحصر بإنما

قال تعالى:

{ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَـهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا }.

و لا يخفى أنَّ قوله " **أَنَّمَا إِلَـهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ** " يشير إلى التوحيد في العبادة الذي هو نفس المفهوم من قوله "**لا إله إلا الله**" **مضافاً** إلى أنَّ النهي عن عدم الشرك بالله تعالى في العبادة، دليل على أنَّ الآية تشير إلى التوحيد في العبادة.

الحصر بإلا في سياق النفي

وهي أهم مسألة في القرآن الكريم حيث تمثّل كلمة التوحيد الذي هو الحصن الحصين من دخله كان آمناً و هي: " **لا إله إلا... "**

وقد ذكرت في القرآن الكريم في ستة و ثلاثين مورداً إلا أنَّ التعابير مختلفة وكلٌّ يتناسب مع شأنه الخاص به، يعرفه المتأمِّل عند مراجعة الآيات:

الف: "لا إله إلا الله" و هي كلمة التوحيد وقد وردت في آيتين:

قال تعالى: { إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ }

وقال: { فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ }

وأما التعابير الأخرى فقد ورد في تسعة وعشرين مورداً **"لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ" ،** وهناك تعبير آخر وهو في قوله تعالى:**{...أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ }**

وقد نطق به النبي يونس بعد أن ابتلعه الحوت و هذا يبيِّن مدى قربه (ع) إلى الله سبحانه.

وأمّا قوله "لا إله إلا أنا" فقد ورد في ثلاثة آيات هي:

{ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى * إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمْ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي }

{يُنَزِّلُ الْمَلاَئِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِي}

{ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِي }

و من اللطيف أن الآيات الثلاثة مرتبطة بالوحي الإلهي وهو أمر يتعلّق بفئة خاصة من عباد الله وهم الخيرة من العباد وكلمة "**أنا**" الواردة هنا تبيِّن مستوى الارتباط الموجود بين هؤلاء وربِّهم ، فعند ذلك سوف تنعدم الوسائط جميعاً.

ثم:

عند التأمل فيها، نعرف أنَّ هذا المقام لا يصل إليه إلا من كان له ارتباط وثيق بالله ، ومن هنا سوف نعرف السرّ في قوله تعالى "**إيّاك نعبد و إيّاك نستعين**" وأيضاً السر في مجيء الفعل بصورة الجمع بدلاً من الإفراد، لئلا يلزم الكذب في القول، فهناك من يعبد الله بحق وهم الذين قد وصلوا إلى مقام اليقين حيث يقول سبحانه:

{ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ }. والوصول إلى اليقين هي الغاية النهائية للعبادة، ومن هنا قد فسِّر قوله تعالى:

{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُون }بالمعرفة، فإنَّها غاية العبادة وأيضاً في الحديث القدسي الشريف:

((كنت كنزا مخفيا فأحببت أن اعرف فخلقت الخلق لكي أعرف))

وفي زيارة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلّم:

((و أشهد أن محمداً عبده و رسوله بلغت الرسالة و أديت الأمانة و نصحت أمتك و جاهدت في سبيل ربك حتى أتاك اليقين صلى الله عليك و على أهل بيتك طبت حيا و طبت ميتا))

كما أنَّ في زيارة سيد الشهداء أبي عبد الله الحسين عليه السلام:

((و أشهد أنك وفيت بعهد الله و جاهدت في سبيل الله و عبدت الله مخلصا حتى أتاك اليقين))

هذا:

وآخر ما ورد في القرآن من هذا التعبير هو قوله تعالى:

{ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنْ الْمُسْلِمِينَ * آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ }

والمتأمِّل يعرف أنَّه لم يكن ذلك من الإيمان في شيء فلم يكن فرعون يعرف الله تعالى إطلاقاً بل كان تلفظاً في القول فحسب.

ثمَّ إنَّ لآية الله السيد عبدالأعلى الموسوي السبزواري رضوان الله تعالى عليه هاهنا كلاماً ينبغي ذكره :

"ويستفاد الحصر في المقام من أمرين: أحدهما: سياق الآية المباركة لأن من كان " رب العالمين " و " الرحمن الرحيم " و " مالك يوم الدين " لا وجه لعبادة غيره، فإن غيره مطلقا مملوك له تعالى ومحتاج إليه ولا وجه أن يدع من له تلك

الصفات في عبادته ويعبد غيره، ومنه يظهر سر قولهم (عليهم السلام) " العقل ما عبد به الرحمن واكتسب به الجنان " وكثرة إطلاق الجهل على المشركين في الكتاب والسنة)).

تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر

قد قدّم المفعول على الفعل اهتماماً بشأنه وبياناً للحصر لأنَّ تقديم ما حقّه التأخير يفيد الحصر، فلذلك اختص الله بأن يعبد لا غير.

وهذا الأسلوب من الحصر قد ورد كثيراً في القرآن، فهناك آيات كثيرة بنفس سياق هذه الآية، يستفاد منها الحصر نذكر بعضها:

قال تعالى:

{ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِي }

وأمّا ما هو مصداق العبادة في هذه الآية فيفسِّره قوله تعالى:

{ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا...}

فالعبادة لا تعني الصلاة و الصيام فحسب بل هي شاملة لجميع ما يقرِّب الإنسان إلى الله ومن أهم تلك المصاديق هو الهجرة في سبيل الله، وهذه العبادة تتطلّب تحمل المشاق و الصبر. **قال تعالى:**

{ قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ * قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ }

ثم:

إنَّ هذا النمط من البيان أعني تقديم ما حقه التأخير، تنتج منه أمورٌ كثيرة، نذكر بعضها ، مستفيدين من بعض الآيات التي تؤيد ذلك:

الإخلاص

وقد أشرنا إليه سابقاً حيث أنَّ الحصر يعني أنَّ العبادة لا تعتريها أيَّة شائبة من الرياء و العجب أصلاً. **قال تعالى:**

{ فَاعْبُدْ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ * أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ..}

والجدير بالذكر ما في الآيتين التاليتين من التفصيل حيث بيَّن سبحانه فيهما حقيقة العبادة الخالصة و محتوى كلمة الإخلاص التي تتكوَّن من النفي وهو**"لا إله"** و الإثبات و هو **"إلاّ الله"** وكذلك بالنسبة إلى سائر أساليب الحصر.

فمن الجانب الإيجابي يقول سبحانه و تعالى:

{ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ * وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ }

ومن الجانب السلبي يقول:

{ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ }

وفي الحديث عن الإمام الرضا عليه السلام قال:

((إياك نعبد رغبةً و تقرباً إلى الله عزّ و جلّ و إخلاصاً بالعمل له دون غيره))

عبادة الله على حرف

و في قبال العبادة الخالصة تأتي العبادة التي يستهدف منها هوى النفس بما للكلمة من معنى، وقد بيَّن سبحانه صفة هؤلاء بقوله:

{ وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ }

وحرف الشيء طرَفُه، و جمعه أحرف وحروف، يقال حرف السيف وحرف السفينة وحرف الجبل، ويقال انحرف عن كذا وتحرف.

فهؤلاء لا يعبدون الله على أيِّ تقديرٍ بل عبادتهم مشروطة بحصول الخير الدنيوي وإن كان شرّاً في الواقع، وأيضاً يعبدون الله بشرط أن يبعد عنهم الشر الذي يرونه كذلك وإن كان فتنةً وابتلاءً في الواقع. ومن الواضح أنَّ عاقبة هؤلاء خسارة في الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين.

الشهود

قال صاحب كتاب بيان السعادة في تفسيره:

" ينبغي للقارئ أن يرتقي إلى مقام الحضور، ويشاهد الحق تعالى في مظاهره تعالى، ويظهر عبوديته ورقيته له تعالى بنحو حصر العبودية فيه فإن مقام الحضور يقتضي التضييق في العبودية بحيث لا يبقى للحاضر مجال النظر إلى غير المعبود ألم تنظر إلى قوله تعالى " أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا "من غير ذكر عبادة فيه فضلا عن حصر العبادة فيه تعالى، وإلى قوله تعالى" يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُون " بذكر العبادة وحصرها فيه تعالى " .

و قال آية الله السبزواري قدّس سرُّه:

"إنَّه بعد إقرار العبد بالألوهية والاعتراف بالربوبية وأنه مالك يوم الجزاء، صار لائقا بالمخاطبة الحضورية معه تعالى، فارتقى العبد من الغيبة إلى الحضور لارتقاء مقام قلبه عن الغفلة إلى التوجّه والحضور. وللتوجه من الغيبة إلى الحضور مراتب بحسب المعرفة والطاعة في العبد ".

الاستعانة باللــه وحده

وقد جاء بعد قوله تعالى **"إيّاك نعبد " "وإياك نستعين"** مباشرة من غير أن يفصل بينهما شيء فيستفاد من ذلك أمور مختلفة منها:

* **أن** الله سبحانه وتعالى قادرٌ على إجابة كلّ دعوة وذلك لأنَّ انحصار الاستعانة به وحذف متعلق الاستعانة -**الدل على الاستعانة في كافة الأمور**-دليل على قدرته تعالى على إجابة جميع الدعوات.

* أنَّ العبودية الخالصة، تتوقّف على الإمداد الإلهي، فالظاهر أنَّ متعلّق **"نستعين"** هو العبادة وقد حذف بقرينة نعبدُ.

* أنَّ عبودية الله وحده طريق صعب يفتقر إلى الاستعانة الإلهيَّة المستمرَّة. وفي الحديث عن الإمام الرضا عليه السلام:

((إياك نستعين استزادة من توفيقه و عبادته و استدامة لما أنعم عليه و نصره))

لماذا التكرار؟

تلاحظ أنَّ كلمة إيّاك قد كرِّرت، فها هنا سؤال يطرح نفسَه عن سرِّ هذا التكرار، فقالوا في توجيهه أقوالاً نشير إلى بعضها:

منها:قال بعضهم:

" وإنما كررت كلمة إياك لتثبيت النتيجة وتأكيدها كما يقال للمنعم المترسل المتفضل في إنعامه الجزيل أنت الذي فعلت معي كذا وأنت الذي دفعت عني كذا، وطرداً لكل أحد سواه عن ملابسة إصدار هذه النعم" .

أقول فهذا سيد الشهداء في يوم عرفة يقول في دعائه:

((يا مولاي أنت الذي أنعمت أنت الذي أحسنت أنت الذي جملت أنت الذي أفضلت أنت الذي مننت أنت الذي أكملت أنت الذي رزقت أنت الذي أعطيت أنت الذي أغنيت أنت الذي أقنيت أنت الذي آويت أنت الذي كفيت أنت الذي هديت أنت الذي عصمت أنت الذي سترت أنت الذي غفرت أنت الذي أقلت أنت الذي مكنت أنت الذي أعززت أنت الذي اعنت أنت الذي عضدت أنت الذي أيدت أنت الذي نصرت أنت الذي شفيت أنت الذي عافيت أنت الذي أكرمت تباركت ربى و تعاليت فلك الحمد دائما و لك الشكر واصبا))

ومنها: لبيان أنَّ كلٍّ من العبادة و الاستعانة يختصّان بالله تعالى، فكما لا تجوز عبادة غيره، لا يجوز الاستعانة بغيره.

ومنها: لبسط الكلام مع المحبوب، فالآية كقوله تعالى:

{ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَامُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى }

ثمَّ إنَّه من الضروري أن نتطرَّق إلى المفاهيم التي تشبه الاستعانة فنقول:

هناك مفاهيم ثلاثة متقاربة ينبغي ذكرها ليتَّضح لنا معنى الاستعانة في أم الكتاب وهل هي مطلقة أم مخصَّصة في العبادة حيث اختلف المفسِّرون فيها فنقول:

المفاهيم الثلاثة هي:

"المعين و الوكيل و الكفيل "

وأمّا الكفيل فلم يطلق سبحانه على نفسه أصلاً ذلك لأنَّ الكفالة هي الضمان فلا معنى لجعله تعالى ضامناً للإنسان.

و أما الوكيل فهو فعيل بمعنى المفعول ويعني الاعتماد على الله و جعله تعالى نائباً عنك في جميع الأمور وهو يختلف عن الكفيل، فالوكيل أعم من الكفيل لأن كل كفيل وكيل وليس كلّ وكيل كفيلا.

وموارد استعمال الوكالة، تشبه موارد استعمال الاستعانة، إلا أنَّ هناك فرقاً رئيسياً بينهما سيتَّضح لك فيما بعد إن شاء الله تعالى.

الاستعانة

تطرَّق القرآن الكريم إلى مفهوم الإستعانة في ستَّة آياتٍ، غير أنَّه لا علاقة لآيتين منها بالموضوع وهما:

1-ما تتعلق بالنبي يعقوب (ع)

بعد أن وضع أولاد يعقوب أخاهم من أبيهم - أعني يوسف - في غيابت الجب، رجعوا إلى أبيهم ، وجاءوا على قميصه بدمٍ كذب قال لهم أبوهم :

{ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ }

والإضراب المستفاد من كلمة "بل" يدلُّ على تكذيبه لما قالوا ، و هذا هو موطن الصبر، حيث لا حيلة ليعقوب، لأنَّ الشيطان قد زيَّن لهم أمراً لو أراد عليه السلام أن يظهره، لأدَّى ذلك إلى حدوث أضرار جسيمة تعمُّه و تعمُّ أولاده، بل ربَّما تسري إلى أمر النبوَّة المستقبلية، فتغيِّر مسيرتها.

والصبر الجميل هو الذي لا شكوى فيه، وفي نفس الوقت يكون حافزاً للتحرُّك من أجل الوصول إلى حلٍّ جذري، فهو إذاً من أروع مصاديق الجهاد في سبيل الله للمؤمنين.

وينبغي أن يعلم أنَّ الصبر الجميل لا ينافي البكاء أو الضحك بل جماله كامن في أمر آخر و هو لأنَّه لا يخلّ بوضع الإنسان النفسي ولا العائلي الاجتماعي ومن هنا يقول سبحانه:

{ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ}

وأمَّا أولاده فحيث لم يكن بإمكانهم تمييز الصبر الحقيقي من الجزع والفزع غي الهادفَين قالوا:

{ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنْ الْهَالِكِينَ}

فهو عليه السلام في الجواب يعرِّف حقيقة الصبر:

{قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى ـ وَأَعْلَمُ مِنْ ـ مَا لا تَعْلَمُونَ }

وكان يعلم ماذا سيحدث في المستقبل من النجاح، وعلمه هذا كان من الله سبحانه وتعالى.

وهاهنا يكون للاستعانة بالله و توكيل الأمر إليه تعالى دور رئيسيٌّ فقال:

{...وَ ُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ }

2- ما ترتبط بالنبي الأكرم (ص)

{قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَانُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ }وهذه الآية تشبه الآية السابقة حيث يواجه الرسول بعض المنكرين لنبوَّته فيطلب من الله أن يحكم بينه وبينهم بالحق و يذكر اسم الرحمن الشاملة رحمتُه للمؤمن وغيره ويستعين به في ما يصفون، حيث لا حلَّ آخر في البين أفضل من الاستعانة بالرحمن.

وحدة السياق

وأمّا الآيات الأربعة الأخرى فهي التّي لهامساس مباشر بما نحن فيه وهي:

1-قوله تعالى:**{ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }**

2-قوله:**{ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}**

3-قوله:**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ }**

4-قوله:**{ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ }**

والتدبُّر فيها يوصلنا إلى أنَّها من ناحية السياق متَّحدة وتهدف حقيقة واحدة ، وهذا سنوضحه فنقول:

المفاهيم المستفادة منها

إنَّ أهم المفاهيم المستفادة من الآيات الأربعة هي:

" العبادة، الاستعانة، الصبر و الصلاة، الخشوع ، وراثة الأرض "

وهذه الحقائق ليست كلُّها على نهجٍ واحد بل تختلف من حيث المحتوى،**فالعبادة والاستعانة** كلاهما حالتان نفسيتان لهما نوعٌ من

الظهور و البروز في الخارج من خلال الإنسان المؤمن وهما مختصّان بالله تعالى وحده بمعنى أنَّه تعالى هو المعبود وهو المستعان.

غير أنَّه جلَّ شأنه إظهاراً لهما قد منح عباده وسيلتين هما: **الصبر و الصلاة**، وتحقيقهما يفتقر إلى حالة عظيمة كامنة في النفس وهي **الخشوع** و الخشية و الوجل، وكلُّ ذلك لأجل الوصول إلى أهم غاية مهمَّة وهي **وراثة الأرض** فالرجوع إليه ولقائه.

والحاصل:

إنَّ هناك ارتباطا تكوينيا بين أمورٍ أربعة لكلّ واحدة منها موطن خاصٌّ، تبدأ من **الخشوع** الذي يكون موطنه هو باطن النفس وهي كمعدن النور تنبثق منها **العبادة والاستعانة** وموطنهما أيضاً النفس ولكن في مرحلة أخرى ربَّما تظهر في الجوارح من خلال أمرين رئيسيين بينهما ارتباط وثيق وهما **الصبر و الصلاة** وكلّ ذلك سوف يبرز في **وراثة الأرض** التي هي الغاية النهائيَّة للإنسان ومن ثم الرجوع إلى الله.

فلنبدأ إذاً بشرح كلّ واحدة من هذه المفردات على ضوء القرآن نفسِه فنقول:

و أمّا الاستعانة

وهي محور البحث هنا ولا تكون لها مصداقيَّة إلا إذا كانت هناك شدَّة و صعوبة في البين، ولهذا صارت كبيرة إلا على الخاشعين، قال تعالى:

{ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ } فالظاهر أنَّ الضمير في "**إنَّها**" راجع إلى الاستعانة التي هي مصدر مستفاد من فعل الأمر، وهذا ما يُسمَّى في علم البلاغة بالاستخدام ويشهد لما قلنا ما ذكره المجلسي حيث قال:

((و قيل الاستعانة بهما))

وأمّا المفسِّرون فبعضهم أرجع الضمير إلى الصلاة خاصة باعتبار أنَّها الأقرب إلى الضمير، وبعضهم أرجعه إليهما وذلك بعناية خاصَّة لا مجال للحديث عنها هنا.

و أمّا الصبر و الصلاة

فذكرتا في تلك الآية وفي قوله تعالى:

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ }

وهذا دليلٌ على أهمِّيتهما الكبير.

فأما الصلاة :

فربَّما يقصد منها الصلوات الخمس أو هي مع الصلاة على محمَّد وآل محمَّد، ففي الحديث:

((و قال الإمام عليه السلام إن هذه الفعلة من الصلوات الخمس و الصلاة على محمد و آله مع الانقياد لأوامرهم و الإيمان بسرِّهم و علانيتهم و ترك معارضتهم بِلِمَ ! و كَيْفَ))

وأمّا الصبر؟

قيل أنَّه إشارة إلى الصوم استناداً إلى أحاديث:

منها:((عن عبد الله بن طلحة عن أبي عبد الله عليه السلام، في قوله تعالى "و استعينوا بالصبر و الصلوة "قال: الصبر هو الصوم))

ومنها:((عن سليمان الفرّاء عن أبي الحسن عليه السلام في قول الله تعالى "و استعينوا بالصبر و الصلوة "قال: الصبر الصوم، إذا نزلت بالرجل الشدة أو النازلة فليصم. قال عليه السلام: الله يقول: "استعينوا بالصبر و الصلوة " و الصبر الصوم))

و قد وردت أحاديث كثيرة في موارد مختلفة تؤكّد على أنّ من كانت له حاجة فليصم يوماً أو يومين أو أكثر ثمَّ يطلب من الله حاجته، ولعلَّ السرّ في ذلك هو أنّ الصوم يحرِّر الإنسان من الماديات و عوارضها فيصبح الإنسان نورانياً، و حينئذٍ يستطيع أن يكشف كثيراً من الأمور الخافية عليه بعون الله تعالى.

وقال تعالى في موضع آخر:

{ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا }فالاصطبار في الآية تعني أخذ الصبر عوناً في العبادة وهو يؤدِّي نفس معنى الاستعانة بالعبادة.

ومن هذا المنظار تستطيع أن تعرف السرّ في أنَّ الله سبحانه طلب منّا أن نستعين بنفسه ثمَّ أمرنا بالصبر في الآية التالية:

{ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ }

ولا منافاة بين الآيات الثلاثة، فالاستعانة بالصبر و الصلاة تعني حقيقة الاستعانة بالله تعالى غير أنَّ تلك الآيات قد ذكر فيها مصاديق الاستعانة، و هذه الآية قد رفَّعت المستوى المعنوي للاستعانة، فذكرت منشأ القدسية الكامنة في تلك الآيات، وهو أنَّ الاستعانة بهما تعني الاستعانة بالله تعالى.

ومن هنا ينفتح لنا بابٌ من خلاله، نتمكَّن من خلاله معرفة السرّ في تكرار الآيات القرآنيَّة ومستوى كلِّ آية بالنسبة إلى أخرى، وعليه نعرف مستوى الآية التي في سورة الحمد وهي أعلى مستوىً من جميع تلك الآيات، حيث يقول سبحانه:

{ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }

فجمع سبحانه بين كافة مصاديق العبادة وأنَّها جميعاً لله تعالى كما أنَّه تعالى حصر الاستعانة بنفسه من خلال تقديم ما حقُّه

التأخير، فليست الاستعانة من أجل الصلاة أو الصوم أو الزكاة فقط، بل هي لأجل جميع العبادات، ولا يمكن تحقيق ذلك إلا بالاستعانة به تعالى نفسِه حيث أنَّه من الصعب جدّاً الوصول إلى مستوى "**إياك نعبد**" **بما في الكلمة من معنى أي مرحلة "يعبدونني لا يشركون بي شيئاً"، إ**لا بالاستعانة به تعالى، وسوف يتَّضح لك ذلك عند شرح قوله تعالى "**إهدنا الصراط المستقيم**".

ومن الجدير بالذكر ما ورد في الآية بعد قوله تعالى " **قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا" قل:**

{ إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ }

وفي الحديث:

((قال أمير المؤمنين عليه السلام: انتظروا الفرج و لا تيأسوا من روح الله فإنَّ أحبّ الأعمال إلى الله عزّ و جلّ انتظار الفرج. و قال عليه السلام: مزاولة قلع الجبال أيسر من مزاوله ملك مؤجل و استعينوا بالله و اصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده و العاقبة للمتقين))فنتحدث إذاً عن :

وراثة الأرض

وهي الغاية لعبادة الله و الاستعانة به كما أنَّ العبادة أيضاً هي الغاية القصوى لوراثة الأرض كما يقول سبحانه وتعالى:

{ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ }

والعبادة هي الغاية من الخلق:

{ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُون }

ولكن كيف يمكن الجمع بين هاتين المقولتين ؟

أقول: إنَّ للعبادة مرحلتين :

الأولى:قبل الوراثة هي مرحلة أولى من العبادة لا يصدق عليها عبادة الله بمعنى الكلمة بل يشوبها الشرك لا محالة، نعم بما أنَّ إمام العابدين هو **ولي العصر وصاحب الأمر** عجَّل الله تعالى فرجه الشريف، صحَّ منّا التفوُّه بقولنا "**إيّاك نعبد" كما مر.**

الثانية: بعد الوراثة فتختلف تماماً عن تلك، فهي العبادة الحقيقيَّة التي لا يعتريها شركٌ أصلاً و لا يشوبها رياء أبداً.

ومن هذا المنطلق يمكننا معرفة السرّ في اقتران الصبر بالصلاة و العبادة في الآيات السابقة و كثير من الآيات، فهي ليست الصلاة بلا روح والحجّ بلا محتوى وو... بل هي الصلاة بروحها والحج بما فيها من الأسرار والهجرة و الجهاد بل انتظار الفَرج الذي هو رأس كافة العبادات.

ومن الطبيعي أنَّ مثل هذه تفتقر جدّاً إلى الصبر و الاستقامة و الجهاد الأصغر و الأكبر. وينبغي أن يستمرّ هذا الأمر إلى أن تتحقّق تلك الأمنية أعنى ظهوره صلوات الله وسلامه عليه.

واللطيف ما أشار إليه قوله تعالى:**{فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ}**

هذا:

وقد ورد ت بعد الآية التالية:

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ }

آيةٌ يبيِّن فيها سبحانه حقيقة الشهادة في سبيل الله وأنَّ الشهيد لم يمت، ثمَّ أكَّد على الابتلاء بشيء من الخوف و الجوع ونقصٍ من الأموال و الأنفس، قال تعالى:

{ وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لاَ تَشْعُرُونَ * وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ }

وقد ورد في الحديث:

((عن الحميرى عن أحمد بن هلال عن ابن محبوب عن أبي أيوب و العلا معا عن محمد بن مسلم قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إنَّ لقيام القائم علامات تكون من الله عز و جل للمؤمنين، قلت: و ما هي جعلني الله فداك قال:قول الله عز و جل: و لنبلوئَّكم يعنى المؤمنين قبل خروج القائم عجل الله تعالى فرجه بشيء من الخوف و الجوع و نقص من الأموال و الأنفس و الثمرات و بشِّر الصابرين قال: نبلوهم بشيء من الخوف من ملوك بنى فلان في آخر سلطانهم و الجوع بغلا أسعارهم و نقص من الأموال، قال: كساد التجارات وقلة الفضل... إلى آخره))

الرجوع إلى الله و لقائه

نلاحظ في الآيات التي تحدَّثنا عنها تأكيداً على مفهومين وهما "**الرجوع إلى الله**" و "**لقاء الله**" وكلاهما يرومان إلى أمر واحد له مرحلتان:

أحدها: في الأرض حيث الوراثة واستلامهم إمرة المؤمنين ووصولهم إلى الخلافة الإلهيَّة.

وثانيها: في العالم الآخر أعني البرزخ والآخرة حيث يتنعَّمون بالنعم التي لا زوال لها أصلاً.

ففي سياق الآيات التي وردت فيها الاستعانة، نشاهد هذين المفهومين بوضوح ، قال تعالى:

{ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ }

وذلك بعد قوله:

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ }

وبالفعل، هذا النوع من العبادة يفتقر إلى مرحلة عالية من الوعي و العرفان، بحيث يعتقد الإنسان اعتقاداً راسخاً بالأيادي الغيبيَّة الإلهيَّة لنصرة الأقلِّيَّة المؤمنة، كما قال تعالى:

{ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ }

لأنَّه يتطلَّب صبراً جميلاً مهما طال الأمد.

الخشوع

إنَّ طول الأمد يؤدِّي إلى قساوة القلب، كما قال تعالى:

{ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنْ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمْ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ }

فما هو الحلّ إذاً ؟

ينبغي الاستعانة بالصبر و الصلاة من أجل تحصيل الخشوع و الاعتقاد بلقاء الله. **قال تعالى:**

{ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ * الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ }

وقال:

{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } وقال :{الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلاَةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ }

والخشوع هو لين القلب للحق بالانقياد له وهو أعلى من الخضوع، و يختلف عن الخوف تماماً لأنَّ الخوف مذموم وضدُّه **الشجاعة ولكن الخشوع ممدوح وضده القساوة.**

وفي ينابيع المودَّة عن الإمام الصادق عليه السلام أنَّ الآية نزلت في أهل زمان الغيبة وأنَّ الأمد هو أمد الغيبة ثمَّ قال عليه **السلام:**

((ألا تسمع قوله تعالى في الآية التالية لهذه الآية: " اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ "أي يحييها الله بعدل القائم عند ظهوره بعد موتها بجور أئمة))

ومثلها ما ورد في كتاب كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى سماعة وغيره عن أبى عبد الله عليه السلام. **وفي كنز العمال** بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام في تفسير الآية المباركة قال:

((يعنى بموتها كفر أهلها و الكافر ميت فيحييها الله بالقائم فيعدل فيها فتحيى الأرض و يحيى أهلها بعد موتهم)).

أقول:

ولا يخفى عليك لطافة قوله تعالى "**اعلموا**" في الآية فإنَّها تدلُّ على أهميَّة الموضوع المنسيّ الذي يجب أن يتذكَّره الإنسان. **وأمّا** الإحياء فقد استعمله القرآن كثيراً في الإحياء المعنوي الروحي.**قال تعالى:**

{ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }

وقال:

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ }

العاقبة للمتقين

كلّ تلك الانتصارات راجعة إلى الحياة الأولى و العاقبة أعني الحياة الأخرى فهي أيضاً للمتقين:

{ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ }

وبذلك تعرَّفنا على مفهوم العبادة و الإستعانة في قوله تعالى **{ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }**

فالعبادة لها درجات أهمُّها هي إنتظار فرج ولي العصر وإمام الزمان الحجَّة بن الحسن المهدي عجَّل الله تعالى فرجه وسهَّل مخرجه ، وهي التّي تفتقر إلى الإستعانة بالله تعالى ، والشاهد على ما قلنا هو ما ورد في صلاة صاحب الزمان (ع):

((فهي ركعتان يقرأ الفاتحة فاذا وصل إلى " إياك نعبد وإياك نستعين " كرره مائة مرة ثم يقرؤها إلى آخرها وهكذا يصنع في الركعة الثانية))

****

{اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ}

الهداية

قال الإصفهاني في مفرداته :

"الهداية دلالة بلطف ومنه الهديَّة. إن قيل: كيف جعلت الهداية دلالة بلطف وقد قال الله تعالى " فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ؟ " قيل: ذلك استعمل فيه استعمال اللفظ على التهكّم مبالغة في المعني كقوله " فَبَشِّرْهُمْ بِعَـذَابٍ أَلِيمٍ "".

أقول:

الحديث عن الهداية في القرآن الكريم ومفهومها و أهميتها وآثارها و أحكامها وموانعها وأقسامها التكوينيَّة والتشريعية والعامة

والخاصة وأيضاً الارتباط بين الهداية وسائر المفاهيم الأخلاقية والعملية في الإسلام و مراتب الهداية، كل ذلك يتطلّب أبحاثاً مستقلّة سوف نبيّنها في مواضعها إن شاء الله تعالى.

ولا يخفى أنَّ القرآن مليء بالحقائق الهدائية أكثر من أي كتاب آخر، بل لا تجوز مقايسة القرآن مع سائر الكتب، كيف ؟ وهو الكتاب الخاص بالهداية من ربِّ العالمين .

فنكتفي ببيان ما يتعلّق بالآية المباركة في أم الكتاب وهو طلب الهداية من الله سبحانه بخصوص الصراط المستقيم، ذلك بعد ذكر أمهات الصفات الإلهيَّة ثمَّ الاعتراف بالعبودية وأنَّه هو المستعان ليس إلا.

الهداية من الله وحده

طلب الهداية من الله وحده من غير الالتفات إلى ما سواه أصلاً، هي مرحلة راقية، يفتقر إليها الناس كافة في مختلف مواقفهم و حالاتهم حتَّى الأنبياء و المرسلين وعباده الصالحين، وهذا ما يتناسب مع إيّاك الذي يفهم منه الحصر. نعم، من هو مصداق للصراطٌ المستقيم، فقد وصل إلى مرحلة اللقاء، فلا حاجة له للهداية بهذا المعنى وإن كان هو على أيِّ حال محتاجاً إلى الهداية **بمعنى آخر.**

فهذا الطلب أعني طلب الهداية إلى الصراط المستقيم هو أهم طلب للإنسان العارف لمقام ربه و العابد له، ذلك لأن السورة هي **"أم الكتاب"** و لم يذكر فيها إلا هذا الطلب وذلك بعد ذكر صفاته تعالى و بعد إظهار العبودية له.

وهذا الطلب هو الغاية من الاستعانة بالله تعالى لأنَّه جاء بعد قوله **"وإياك نستعين"** مباشرة ، فهو مُنصَبٌّ في نفس الغاية التّي شرحناها.

مقدمات ومتطلبات الدعاء للهداية

هناك مقدَّمات لطلب الهداية من الله تعالى، نتعرَّف عليها من خلال هذه السورة المباركة تتلخَّص في:

1-معرفة الله سبحانه.

2-حمد الله سبحانه .

3-إظهار العبودية له.

4- الاستعانة منه سبحانه.

5-تعميم الطلب بحيث لا يطلب الهداية لنفسه فقط بل يعمِّمه على الكل.

وأمّا الآيات الأخرى التي وردت في هذا المجال فهي - مضافاً إلى تأكيدها على تلك الأمور - تشير إلى بعض المصاديق لها وهي:

1-التبعيَّة و الإطاعة للرسول:

قال تعالى :{ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ } وقال:{ يَاأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنْ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ

فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا }

2-الإيمان و إخبات القلب:

قال تعالى :{ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ }

3-القنوت لله وشكر أنعمه:

{ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ }

الغاية من العبادة

ما هي الغاية من العبادة ؟

من خلال السورة نستنتج أنَّ الغاية هي الهداية فحسب، وذلك إلى الصراط المستقيم لا غير، فهنا سؤال يطرح نفسه وهو:

كيف تكون الهداية هي الهدف ؟

عند التأمَّل في مفهوم الصراط المستقيم نعرف السرّ في ذلك. **قال تعالى:**

{اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ}

للوصول إلى معنى الصراط و حقيقته وكيفية الاهتداء به هناك وسيلتان:

1-التأمُّل في مفهوم الصراط و استقراء الآيات التي وردت في شأنه و الأحاديث المفسِّرة لها.

2-معرفة من يصدق عليه المغضوب عليهم و الضالين باعتبار أنَّ الأشياء تعرف بأضدادها.

الصراط والسبيل

قال الإصفهاني في المفردات:

"سرط: السراط الطريق المستسهل أصله من سرطتُ الطعام، ابتلعته، فقيل سراط تصوراً أنَّه يبتلعُه سالكُه أو يبتلع سالكَه، ألا ترى أنه قيل قتل أرضاً عالمُها وقتلت أرضٌ جاهلَها...وكذا سمي الطريق اللقم والملتَقم اعتباراً بأنَّ سالكَه يلتقمه"

فالطريق الوسيع كأنَّه هو الذي يدفع سالكيه إلى الأمام و يسحبهم كالجهاز الهاضم للأكل.

وهناك مصطلح آخر يتناسب مع الصراط، ذكره القرآن الكريم بكثرة و هو "**السبيل.**" قال صاحب المفردات في بيان معنى السبيل:

"السبيل الطريق الذي فيه سهولة وجمعه سُبُل قال: "وأنهاراً وسبلا "،"وجعل لكم فيها سبلا"،"ليصدونهم عن السبيل"

يعنى به طريق الحق لأن اسم الجنس إذا أطلق يختص بما هو الحق، وعلى ذلك "ثمَّ السبيل يسَّره"، وقيل: لسالكه سابل وجمعه سابلة... ويستعمل السبيل لكل ما يتوصل به إلى شئ خيراً كان أو شراً قال: " أدع إلى سبيل ربك "، " قل هذه سبيلي "، وكلاهما واحد لكن أضاف الأول إلى المبلّغ والثاني إلى السالك"

فالسبيل هو الطريق الخاص غير المعروف فيعرف بالأشخاص، ومن هنا نشاهد أنَّ أكثر الموارد التي وردت في القرآن الكريم جاءت بنحو الإضافة، إمّا إلى الله سبحانه، وذلك في خمسة وستين مورداً كما أنَّ هناك ستَّة موارد جاءت فيها سواء السبيل، وأيضاً أضيف السبيل إلى الرشد والرشاد في قبال سبيل الغي.

وقد أضيف السبيل إلى الطاغوت في قوله تعالى:

{ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ... }

وأضيف إلى المفسدين في الآية التالية:

{... وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ}

ومن الجدير بالذكر ما ورد في الآية التالية حيث فرَّق فيها بين الصراط والسبيل، قال تعالى:

{ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } فهي كالمفسِّرة لسائر ما ورد في القرآن، فسبيل الله هو سبيل الرشد والرشاد و هو سبيل المؤمنين وهو أيضاً الصراط المستقيم.

و هناك سبل أخرى هي طرق فرعية منحرفة وهي كثيرة و لا تكون ذات خير و صلاح وسلامة ولا تؤدي إلى الإطمينان وهي جميعا في قبال سبيل الله حيث أنَّها سبيل الغي و الطاغوت و المفسدين.

والحاصل : أننا نريد القول بأنَّه ليس هناك سبيل فرعيٌّ يوصل الإنسان إلى سبيل الله كما ظنَّ البعض، بل كلُّ سبيل خير هو سبيل الله و يقع في الجادة الوسطى و هو الصراط المستقيم مهما كان اسمه. هذا ما يتعلَّقُ بالسبيل.

وأما الصراط فهو الطريق العام الواضح الذي يؤدِّي إلى اطمينان السالك فيه وهو طريق الخير و الصلاح، فهو مطلوب للإنسان فطرةً، ولهذا يضاف إلى الحق و المستقيم دائماً.

الإطمئنان والسكينة

ومن هنا يمكننا أن نعرف فلسفة جميع العبادات التي يدل عليها إطلاق قوله تعالى "**إيّاك نعبد**" والتي تحدَّثنا عنها سابقاً، فالغاية من جميع العبادات، الوصول إلى الإطمئنان والسكينة التي لا تحصل إلا بذكر الله و الرجوع إليه:

{ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ }

وقال تعالى:

{إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمْ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي} ذلك في قبال العيش الضنك الذي يشير إليه تعالى:

{وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى}

فالصراط المستقيم هو المطلوب كهدف لا كوسيلة، ذلك لأنَّ كلَّ من وفّق للسير في هذا الطريق فقد نال مقصوده، فهو بوقوعه في مسيره الصحيح سوف تزول عنه كافة الاضطرابات النفسية فتكون نفسه مطمئنَّة. فالصراط هو الغاية التي توصل الإنسان المؤمن إلى مستوى الطمأنينة و الهدوء، وكلّ خطوة يخطوها سوف تكون له نوراً وكمالاً و اهتداء، فهو إذاً قد وصل إلى كلِّ هدفه مادام أنَّه معتصم بالصراط، إلا إذا خرج عنه فحينئذٍ قد انحرف عن الهدف.

وعليه يكون سيره في حال الاهتداء سيراً إيمانياً تكاملياً، يوجب نموّ روحه و صفاء نفسه، فلا يطلب شيئاً آخر وراء الهداية إلا الهداية إلى أن يصل إلى الكمال المطلق وهو الله سبحانه وتعالى، فالمطلوب إذاً هو الصراط ليس إلا، ومن هنا لم يعبِّر سبحانه **"بإهدنا إليك" بل قل "إهدنا الصراط "** فالحركة على الصراط هي عين البقاء و الكمال والحياة، فالاهتداء للصراط المستقيم والوقوع فيه، هو النعمة عظيمة في قبال سائر النعم من الحور و القصور و غيرها وهو الذي يطلبه الإنسان بفطرته. ومن هنا **جاءت كلمة "الصراط"**مع الألف و اللام الذين هما للعهد الذهني أو الخارجي أي أنَّ الصراط هو ذلك الطريق المعهود و المطلوب لكل باحث وهو طريق كمال الموجودات، وهو بطبيعته مستقيم.

قال في المفردات:

"و القيام و القوام اسم لما يقوم به الشيء أي يثبت كالعماد و السناد لما يعمد و يسند به كقوله " و لا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما"، أي جعلها مما يمسككم و قوله "جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس"، أي قواماً لهم يقوم به معاشهم و معادهم...و الاستقامة يقال في الطريق الذي يكون على خطّ مستو و به شبّه طريق المحق نحو "إهدنا الصراط المستقيم"، و أن هذا صرا طي مسقيما، إن ربي على صراط مستقيم، و استقامة الإنسان لزومه المنهج المستقيم نحو قوله: "إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا، و قال فاستقم كما أمرت"))

وعلى أساس ما بيِّن من معنى الصراط، فالمستقيم تكون صفة توضيحيَّة، فالطريق غير المستقيم ليس هو الصراط، وكل موجود حيّ إنَّما يبقى إذا كان متطابقاً مع مبدأ الكمال، لأنَّ منشأ فناء أكثر الموجودات الحيَّة هو عدم وقوعها على الصراط المستقيم. **إذا** أراد الإنسان البقاء ينبغي أن لا تحكمه البيئة مهما كانت، بل ينبغي مخالفتها لو كانت في غير الخط المستقيم، وينبغي له أن يسعى لوضع نفسه على الصراط المستقيم حتى يصل إلى كماله المنشود الذي يطلبه كلّ حي .

هذه الحقيقة بيَّنها سيد الشهداء في ليلة العاشر من محرَّم حيث أنشأ يقول:

((يا دهر اف لك من خليل * كم لك في الاشراق والاصيل

من طالب وصاحب قتيل * والدهر لا يقنع بالبديل

وإنما الامر إلى الجليل * وكل حي سالك سبيلي))

قال تعالى:

{ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ }

ثم:

إنَّ الآيات المبيِّنة للصراط على كثرتها، تشير إلى حقيقة واحدة وهي أنَّ الصراط إنَّما هو صراط الله الذي أنعمها على بعض من أوليائه و صفوته من خلقه، ولذلك نشاهد أنَّه تعالى قد أضاف الصراط إلى نفسه في الآيات الثلاث حيث يقول:

{...وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلاَ إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ }.

{وَأَنَّ هَذَا صرا طي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ }

{ وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ }

الاعتصام بالله

وأما كيفية الاهتداء إلى الصراط المستقيم فقد بيَّنتها الآية التالية حيث يقول سبحانه وتعالى:

{ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ }

والآية قد بيَّنت مفهوماً عاماً ينبغي أن يفسَّر، وقد فسَّره قوله تعالى:

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا }

فالآية قد بيَّنت الوسيلة للاهتداء إلى الصراط المستقيم وهو الاعتصام بالله، المتمثل في ذلك البرهان و النور المبين وهو الثقل الأكبر أعني القرآن الكريم، وإنَّما أطلق الاعتصام عليه فباعتبار أنَّه يوجب العصمة. **قال في المفردات:**

"العصم الإمساك والاعتصام الاستمساك قال: (لا عاصم اليوم من أمر الله) والاعتصام التمسك بالشيء قال (واعتصموا بحبل الله جميعا ومن يعتصم بالله) واستعصم استمسك كأنه طلب ما يعتصم به من ركوب الفاحشة قال (فاستعصم) أي تحري ما يعصمه وقوله (ولا تمسكوا بعصم الكوافر) والعصام ما يعصم به أي يشد وعصمة الأنبياء حفظه إياهم أولا بما خصهم به من صفاء الجوهر ثم بما أولاهم من الفضائل الجسمية والنفسية ثم بالنصرة وبتثبت أقدامهم ثم بإنزال السكينة عليهم وبحفظ قلوبهم وبالتوفيق قال تعالى: (والله يعصمك من الناس)"

قال في قاموس المحيط:

"عصم: اكتَسَبَ، ومَنَعَ، وَوَقَى، القِرْبَةَ: جَعَلَ لها عِصاماً، و شَدَّهَا بالعِصَامِ. وعَصَمَهُ الطعامُ: مَنَعه من الجوع، والعِصْمَةُ، بالكسر: المَنْعُ واعْتَصَمَ بالله: امْتَنَعَ بلُطفِه من المَعْصِيَةِ."

وهناك آية تفسِّر الاعتصام حيث تقول:

{ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنْ النَّار فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } فالاهتداء لا يحصل إلا بالاعتصام بحبل الله، وقد وردت في ذيل الآية المباركة أحاديث كثيرة تؤكّد على أنَّ الحبل هو أمير المؤمنين و أولاده المعصومين عليهم السلام، ففي الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام قد فسِّر الحبل بعلي بن أبي طالب عليه السلام، و أيضاً عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله إنَّه سأله أعرابيٌّ عن الآية:

((فأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم يده فوضعها على كتف علي عليه السلام فقال: يا أعرابي: هذا حبلُ الله فاعتصم به، فدار الأعرابي من خلف عليٍّ و التزمه ثم قال: اللهم إنِّي أشهدك أنِّي اعتصمت بحبلك. فقال رسول صلى الله عليه وآله: من سرَّه أن ينظر إلى رجلٍ من أهل الجنَّة فلينظر إلى هذا))

فلنتأمل في مفهوم الحبل حتى نعرف كيفيَّة الاعتصام به. قال الراغب في المفردات:

"الحبل معروف، قال عزّ وجلّ "في جيدها حبل من مسد"، وشبه به من حيث الهيئة حبل الوريد...واستعير للوصل ولكل ما يتوصل به إلى شئ قال عز وجل واعتصموا بحبل الله جميعا، فحبله هو الذي معه التوصل به إليه من القرآن والعقل وغير ذلك مما إذا اعتصمت به أداك إلى جواره ويقال للعهد حبل وقوله تعالى ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس، ففيه تنبيه أن الكافر يحتاج إلى عهدين عهد من الله وهو أن يكون من أهل كتاب أنزله الله تعالى وإلا لم يقرّ على دينه ولم يجعل في ذمة وإلى عهد من الناس يبذلونه له"

أقول: إنَّ قوله تعالى:

{ضُرِبَتْ عَلَيْهِمْ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِنْ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنْ النَّاس..}لا يختص بالكفّار من أهل الذمَّة بل هي قاعدة عامَّة وهو **"الالتزام بالتعهُّد"** كما مرّ وهذا له بعدان:

أحدهما: مِن الله وهو أن يعتمد على كتاب الله النازل من السماء الشامل لجميع الكتب السماوية قبل نسخها و المختص بالقرآن الكريم المهيمن عليها بعد ذلك. وقد أشارت الآية المباركة إلى ذلك حيث قال سبحانه:

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا }

فلا يهتدي الإنسان إلى الصراط المستقيم إلا بالإيمان بالقرآن و الاعتصام به.

ثانيهما: مِن الناس و ينبغي أن يكون كالقرآن الكريم في نورانيته و عصمته وليس هو إلا الإمام المتمثل في الرسول الأكرم ومن بعده في عليٍّ و الهداة من أولاده عليهم أفضل صلوات المصلين. وقد روى الثعلبي في تفسير قوله تعالى "**و اعتصموا بحبل الله جميعاً**" بأسانيد:

((قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم: يا أيّها الناس إنّي قد تركت فيكم الثقلين خليفتين إن أخذتم بهما لن تضلوا بعدي أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله حبل ممدود ما بين السماء و الأرض أو قال إلى الأرض و عترتي أهل بيتي ألا و انهما لن يفترقا حتّى يردا عليَّ الحوض))

وفي الحديث التالي المنقول عن غيبة النعماني تفسير وافٍ للآية المباركة وآيات أخرى لها علاقة بالموضوع، ولأهميته من زوايا مختلفة لاشتماله على مطالب دقيقة و أسلوب لطيف في تفسير القرآن الكريم نذكره بطوله:

((محمد بن عبد الله الطبراني عن أبيه عن علي بن هاشم و الحسن بن سكن معاً عن عبد الرزاق بن همام عن أبيه عن مينا مولى عبد الرحمن عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: وقف على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم أهلُ اليمن يبشّون بشيشا، فلما دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم قال: قوم رقيقةٌ قلوبُهم راسخٌ إيمانُهم منهم المنصور يخرج في سبعين ألفا ينصر خلفي و خلف وصيي، حمائلُ سيوفهم المسَد، فقالوا : يا رسول الله: مَنْ وصيّك ؟ قال: هو الذي أمركم بالاعتصام به، فقال عزَّ و جلّ: "و اعتصموا بحبل الله جميعا و لا تفرقوا "فقالوا: يا رسول الله بيِّن لنا ما هذا الحبل ؟ فقال: هو قول الله: " إلاّ بحبل من و حبل من الناس " فالحبل من الله كتابُه و الحبل من الناس وصييِّ فقالوا: يا رسول الله: من وصيك ؟ فقال: هو الذي أنزل الله فيه "أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب " فقالوا يا رسول الله: و ما جنب الله هذا ؟ فقال: هو الذي يقول الله فيه: " يعضّ الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً "فوصييِّ السبيل إليَّ من بعدي.فقالوا: يا رسول الله بالذي بعثك بالحق، أرناه فقد اشتقنا إليه.فقال: هو الذي جعله الله آيه للمؤمنين المتوسمين، فان نظرتم إليه نظر منْ كان له قلب أو ألقى السمع و هو شهيد، عرفتم أنه وصيي كما عرفتم أني نبيكم، تخللوا الصفوف و تصفحوا الوجوه فمن أهوت إليه قلوبكم فإنَّه هو لأنَّ الله عزَّ و جلّ يقول في كتابه: "فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم" إليه و إلى ذريته عليهم السلام .قال: فقام أبو عامر الأشعري في الأشعريين و أبو غرّة الخولاني في الخولانيين و ظبيان و عثمان بن قيس و عرنة الدوسى في الدوسيين و لاحق بن علاقة فتخللوا الصفوف و تصفحوا الوجوه و أخذوا بيد الأنزع الأصلع البطين و قالوا: إلى هذا أهوت أفئدتنا يا رسول الله. فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلَّم: أنتم بحمد

عرفتم وصيَّ رسول الله قبل أن تعرفوه و عرفتم أنَّه هو، فرفعوا أصواتهم يبكون و يقولون: يا رسول الله نظرنا إلى القوم فلم نحنَّ لهم و لما رأيناه رجفت قلوبنا ثم اطمأنت نفوسنا و انخدشت أكبادنا و هملت أعيننا و انثلجت صدورنا حتى كأنه لنا أب و نحن له بنون. فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلَّم: و ما يعلم تأويله إلا الله و الراسخون في العلم، أنتم منهم بالمنزلة التي سبقت لكم من الله الحسنى و انتم عن النار مبعدون قال: فبقي هؤلاء القوم المتوسمون حتى شهدوا مع أمير المؤمنين عليه السلام الجمل و صفين رحمهم الله، فكان النبي صلى الله عليه وآله وسلَّم بشرهم بالجنة و أخبرهم انهم يستشهدون مع علي بن أبي طالب عليه السلام))

وفي هذا الحديث إشارة إلى آية أخرى تؤَّدي نفس ما في الآية المباركة في سورة الحمد وهي قوله تعالى:

{ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُول سَبِيلاً * يَاوَيْلَتِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَنًا خَلِيلاً}

وقد مرَّ شرح مفهوم السبيل، وقد وردت أحاديث أخرى في تفسير الآية نشير إلى بعضها:

((محمد بن العباس عن أحمد بن القاسم عن السياري عن محمد بن خالد عن حماد عن حريز عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: قوله عز و جل: "يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا" يعنى علي بن أبي طالب عليه السلام))

ثم :

إنَّك لو تأمَّلت في قوله تعالى :**{ قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ}** الذي مرَّ شرحه في تفسير قوله تعالى"**مالك يوم الدين**" وعرفت العلاقة بين "**من رحم**" وبين "**حبل** " الذي ينبغي التمسُّك به و"**الصراط المستقيم** "، لوصلت إلى حقائق ينابيع الحكمة في القرآن الكريم ، فنترك الأمر لك وننتقل إلى مصطلح آخر يؤدِّي نفس معنى الاعتصام و هو:

الاستمساك

قال تعالى:

{ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } ثمّ قال:{ **وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ }**

وبالنسبة إلى الآية الثانية وردت أحاديث أربعة بأسناد مختلفة في كتاب الكافي تؤكِّد على أنَّ الذكر هو الرسول صلى الله عليه وآله وأهله هم أهل البيت عليهم السلام وفي بعضها، الذكر القرآن والرسول وأهل بيته هم أهله ولا منافاة بينها كما مرَّ في بيان حبل الله فراجع وفي الحديث:

((عن الحسين بن خالد عن الرضا عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم: من أحب أن يركب سفينة النجاة و يستمسك بالعروة الوثقى و يعتصم بحبل الله المتين، فليوال علياً بعدي و ليعاد عدوّه و ليأتم بالهداة من ولده فإنّهم خلفائي و أوصيائي و حجج الله على الخلق بعدي و سادة أمّتي و قادة الأتقياء إلى الجنة،

حزبهم حزبي و حزبي حزب الله عز و جل و حزب أعدائهم حزب الشيطان)) ((موسى بن جعفر عن آبائه عليهم السلام و أبو الجارود عن الباقر عليه السلام و زيد بن علي عليه السلام في قوله تعالى "فقد استمسك بالعروة الوثقى،قال: موَّدتنا أهل البيت))

وفي زيارة أمير المؤمنين عليه السلام **((السلام عليك يا أمير المؤمنين اشهد انك كلمه التقوى و باب الهدى و العروة الوثقى و الحبل المتين و الصراط المستقيم))**

أقول:

العروة ما يكون من الحبل يتمسك به من أراد الصعود والحبل يتمسك به في الارتقاء إلى مدارج الكمال و النجاة من مهاوي الحيرة و الضلال، والعروة من الكوز و الدلو المقبض.

الإطاعة و التبعيَّة

والمصطلح الثالث الذي كثر استعماله في القرآن الكريم وهو متقارب مع المصطلحين السابقين أعنى الاعتصام و الاستمساك هو الإطاعة و التبعيَّة. **قال تعالى:**

{ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوْ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا * ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنْ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا}

من خلال الآيات نستنتج أهميَّة الإطاعة المطلقة لله سبحانه وتعالى و للرسول صلى الله عليه وآله وسلَّم، من غير أي شرط و قيد. وهذا ما يستفاد من الآيات السابقة عليها خاصة الآية التي قبلها مباشرة، وهي قوله تعالى:

{ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} وهذه الآية الكريمة قد أكَّدت على أمور ثلاثة وهي:

1-تحكيم الرسول فيما يقع بين المؤمنين من مشاجرة.

2-عدم وجود الحرج في أنفسهم بعد حكم رسول الله لهم أو عليهم.

3-تسليم جميع أمورهم إليه صلى الله عليه وآله وسلم.

وينبغي أن تصل الإطاعة إلى مستوى يبيِّنها الله في الآية التي بعدها حيث يقول:

{وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوْ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِنْهُمْ...}

فهذه المرحلة من الإطاعة صعبة للغاية و تتطلّب إيماناً راسخاً لا يتحقّق إلا بعد أن يتّصف صاحبه بالصفات الثلاثة السابقة، وحينئذٍ يصل إلى مرحلة من الإطاعة المحضة، بيّنها سبحانه ضمن أمرين بنحو التعليق:

1-أن يُطلب منهم قتل أنفسهم بالفعل كما طلب من بني إسرائيل حيث قال:

{ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ }

وإن لم يطلب من الأمَّة الإسلاميَّة ذلك، لأنَّها هي الأمّة المفضَّلة و نبيُّها نبي الرحمة.

هذا ويمكن أن يكون المطلوب منهم قتل من يتعلّق بهم من عشيرتهم أو آبائهم و أبنائهم كما قيل، ذلك لأنَّهم كانوا يواجهون ذلك فربَّ مؤمن كان أبوه مشركاً أو العكس، و هذا هو الجهاد الأصغر وربَّما تأوَّل الآية إلى الجهاد الأكبر بالمعنى الذي ذكرناه أو لأنَّ قتل النفس كناية عن تحطيم الهوى و مقارعة الشيطان.

2-أن يطلب منهم الخروج من بيوتهم وهو الهجرة التي تأتي بعد الجهاد في سبيل الله وهي الهجرة الصغرى ويمكن أن تشير الآية إلى الهجرة الكبرى أيضاً وهي التي تتمثّل في هجرة النفس والخروج من بيتها المظلم بحيث لا ترى حيطانها و لا تُسمع أذانها على حدّ تعبير الإمام الخميني قدَّس الله روحه الزكيَّة.

والجدير أن هاتين العبادتين - أعنى الهجرة والجهاد - قد أكّد عليهما سبحانه في آيات كثيرة:

قال تعالى مبيِّناً مستوى من مستويات الهجرة و الجهاد:

{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}

وهناك مستوى أعلى لانضمامها بالنصرة للنبي صلوات الله عليه وآله ودعمه مادياً ومعنوياً وهو المفهوم من قوله تعالى:

{ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا أُوْلَئِكَ هُمْ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ }

وقد شُرحت الآيتان تفصيلاً في الآيات التالية حيث قال سبحانه وتعالى:

{ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْفَائِزُونَ }

فهم كانوا يرجون رحمة الله ولكنَّهم قد وصلوا إليها حيث:

{ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ }

فلو تدبَّرت في الآية لعرفت الارتباط الموجود بينها حيث ذكر فيها **"رحمة منه"** التي هي تعبير آخر لقوله **"من لدنا"** وأيضاً **"رضوان"** و **"جنّات لهم فيها نعيم مقيم"**، وبين سورة الحمد و الآية الأولى التي نحن بصدد شرحها وأيضاً ما سيأتي من معنى النعيم، و ما ورد بعدها من قوله تعالى:

{ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ}

والجدير بالذكر أنَّه سبحانه بعد ذلك ينهى المؤمنين من اتّخاذ آبائهم و إخوانهم أولياء إن كانوا كافرين، ثمَّ يهدِّد من يرجحهم أو يرجح التجارة و الأموال والجهاد في سبيله على الله و الرسول وبالأخير يقول:

{...وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ }

وعلى أي حال نرجع إلى الآية التي كنّا نتحدَّث عنها فنقول:

إنَّ الأمرين الذين ذكرتا فيها أعني قتل النفس و الخروج من الديار، إنَّما هما إشارة إلى مدى خضوع الإنسان لربِّه و مدى إطاعته للرسول في ما أمر به و نهى عنه، فالميزان إنَّما هو إتباع الرسول فيما يعظهم به حيث قال بعد ذلك:

{...وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا، وَإِذًا لآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا}

وهذا المقام هو مقام المجاهدين في سبيل الله حيث يقول:

{ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا}

وهناك نتائج أربعة لذلك، اثنتان منها راجعة إلى كمال الإنسان من ناحية روحية وهما:

1-**لكان خيراً لهم**، وهذا يعني أنَّهم لم يصلوا إلى الخير حيث لم يفعلوا ما وعضوا به.

2-**وأشدّ تثبيتا**ً لهم و لإيمانهم.

ثمَّ جرّاء تلكما الصفتين سوف يمنحون أمرين هما:

الأول: **لآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا** وهذا الأجر العظيم خاصٌّ للمؤمن الخالص الذي لا يشوب إيمانه شيءٌ من الفسق والنفاق، بل كان إيمانه خالصاً من البداية، وأمّا لو رجع إلى الله بعد ما كان فاسقاً منافقاً حيث كان في الدرك الأسفل من النار، فسوف يكون مع المؤمنين ليس إلا ، والله سوف يؤت المؤمنين أجراً عظيماً قال تعالى:

{ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنْ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا * إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا}

ولا يخفى عليك أهميَّة الاعتصام بالله في الوصول إلى تلك الدرجة.

الهداية إلى الصراط المستقيم

الأمر الثاني: الذي سوف يمنح هؤلاء هو الهداية إلى الصراط المستقيم حيث قال:

{ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا}

وينبغي أن نتحدَّث عن حقيقة الهداية تحت عنوان:

الرفيق ثمَّ الطريق

1-قوله تعالى: **{اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ...}** يعني أنَّ الذين أنعم الله عليهم، هذا صراطهم يسيرون فيه وهم لم يصلوا إلى مستوى نهائي، فمنهم من هو متقدِّم ومنهم من هو متأخِّر، فكلُّ من يطلب الهداية إلى الصراط المستقيم، فطلبُه هذا يعني أنَّه يريد أن يتقرَّب إلى المقصد النهائي أعني لقاء الله أكثر فأكثر، وبما أنَّه لن يصل إلى ذلك المقام مهما سعى، فهو إذاً في حال السير والتقدُّم دائماً، وعلى هذا لا يخلو مؤمن من ذلك إن كان مطيعاً لله و الرسول متمسكاً بهما، ومن لم يكن كذلك فهو لا يخلو من أحد الطائفتين، إمّا من الذين غضب الله عليهم أو من الضالين، هذا ما نستفيده من سورة الفاتحة. **وبما أن** هذا الإنسان هو في حال حركة من غير سكون فهو إذاً مسافر ومهاجر إلى ربِّه ذاهب إليه: **{ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ }**فهو **{ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ...}** والمعيَّة تعني أنَّه ليس منهم، بل يسير معهم، فهم يسيرون و هو يسير، فهل هو في صفِّهم ؟ لا يعلم ذلك. ولكن القدر المتيقَّن أنَّه غير منحرف عن الصراط بل واقع فيه، وأيّ نعمة أكبر من هذه! ومن هنا عبَّر سبحانه بالرفيق حيث قال: { **وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا}**

قال في محيط اللغة:

"الرفيق: الذي يرافقك في السفر " وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم:((الرفيق ثمَّ الطريق)) وأيضاً عنه (ص) ((الرفيق ثمَّ السفر)).

ولا تخفى عليك المناسبة بين هذا وبين صدر الآيات حيث كان الحديث عن الخروج من الديار و الهجرة إلى الله تعالى.

ثمَّ إنَّ هؤلاء الطوائف الأربعة مع اختلاف مراتبهم، فهم جميعاً في حال السير والسلوك ولن يتوقَّفوا أبداً كما أنَّ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله والأئمَّة الهداة عليهم السلام كذلك، ولكن من ناحية أخرى، فبينهما بونٌ بعيد، فهم يهتدون إلى **الصراط المستقيم** وهؤلاء - أعني الرسول وأهل بيته عليهم السلام - هم **الصراط المستقيم.** والجدير بالذكر أنَّ الآيتين المختصَّتين بالرسول محمَّد صلوات الله عليه وآله قد جاء فيهما كلمة **"على" فقال تعالى:{يس، وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ، إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ، عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ }** وقال:{ **فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ }** وكذلك قوله تعالى:{ **وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاَهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ }** الوارد في شأن عليٍّ سلام الله عليه كما مرَّ في أوائل السورة، والذي يعزز ما قلنا أنَّهم صلوات الله عليهم قد وصلوا إلى مرتبة أعلى من مرتبة الآخرين ، هو قوله تعالى: { **إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ }**و التعبير بربِّي فيه إشارة إلى أنَّه صلوات الله عليه قد وقع تحت إشراف الربوبيَّة الخاصة، ولهذا الأمر عشرات الشواهد في القرآن لا مجال للحديث عنها هنا.

وأمّا سائر الأنبياء والصدِّقين والشهداء والصالحين فهم ليسوا كذلك، بل هم بصدد الوصول إلى الصراط المستقيم كما تدل الآيات

الواردة فيهم: { **وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** } ففيها جميعاً كلمة " **الهداية** " و كلمة " **إلى** " كما سيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله تعالى.

نرجع إلى الآية التي نحن بصدد شرحها ، قلنا أنَّ الأمر الثاني الذي يمنح هؤلاء هو الهداية إلى الصراط المستقيم حيث قال: { **وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا**}

فالله هو الذي يهديهم إلى الصراط المستقيم، والهداية إلى الصراط المستقيم تعدُّ أهم نتيجة للتسليم المطلق وأعلى درجة من النتائج السابقة، وهي في حدّ نفسها غاية مستقلّة كما شرحنا سابقاً وهو النعيم المقيم الذي ورد في الآية السابقة ثمَّ قال سبحانه:

{ **وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا * ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنْ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا**}

فلنتحدَّث بالتفصيل عن الآية المباركة لأنَّها تفصل قوله تعالى:

{**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ...**}

وهي تتكوَّن من الأمور التالية:

الف:المطاع

وهو الله سبحانه و الرسول صلوات الله عليه، وليست هناك إطاعتان في البين، بل إطاعة واحدة هي لله. فالرسول بالترتيب بل هي بنفسها إطاعة أولي الأمر، والجدير بالذكر أنَّه تعالى بدأ في الآية 59 من سورة النساء بقوله:

{ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً** } فهو رغم ذكره أولي الأمر من جملة من يطاع في بداية الآية إلا أنَّه قال بعد ذلك "**فردوه إلى و الرسول**" من غير ذكر أولي الأمر ثمَّ عندما نصل إلى آية 64 من السورة أي بعد أربع آيات فقط نرى أنَّه عدل عن التعبير الأوَّل وقال:

{ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا**}

ثمَّ بيَّن تلك الآية التي شرحناها حول تحكيم الرسول في ما شجر بين المؤمنين وهكذا استمر إلى أن وصل إلى الآية 69 **من نفس** السورة أي بعد أربع آيات فقط حيث ذكر الآية التي نحن بصدد شرحها وهي قوله تعالى:

{ **وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ...**}

ثمَّ شرع في بيان القتال في سبيل الله وأجر المقاتلين الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة حتى وصل إلى الآية 80 **فقال**:

{ مَنْ يُطِعْ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَـاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيـظًا }

أخيراً رجع إلى نفس السياق الأوَّل حيث تطرَّق إلى أولي الأمر في تفسير الحوادث المهمَّة الواقعة التي لها دور حسّاس في الأمَّة الإسلاميَّة، فقال:

{... وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ }

ذلك بعد أن حرض على التدبر في القرآن وقال:

{ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا }

كلُّ ذلك يُدلُّنا على أنَّه لا تعدَّد بينهم أصلاً بل الأمر هو لله تعالى ظهر في مرائيه وتجلَّى في آياته العظمى وهم الرسول وأولوا الأمر.

ب:المطيع

وهو ذلك الإنسان الذي يدعّي أنَّه مؤمن بالله و رسوله، واللطيف أن مصطلح الإيمان قد كرِّر في هذا المقطع ستَّة مرّات.

ولا يخفى عليك السر في ذكر "**الرسول**" باللام ليدلَّ على خصوص الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلَّم، فإنَّ اللام هذه للعهد. فلو تحقَّقت هذه الهداية فسوف يكون الإنسان مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين و الصدِّقين والشهداء و الصالحين، فمرتبهم عليهم السلام غير مرتبته صلى الله عليه وآله.

ج:الجزاء

وهو كونهم مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين و الصديقين و الشهداء و الصالحين، فالنعمة هاهنا ليس مادِّية، بل هي معنوية و روحانيَّة صرفة وهي "**المعيَّة**" وما أعظمها من نعمة إلهيَّة لا يدرك عظمتها إلا المخلصون و لا يشتاق إليها إلا المحبُّون، و لهذا قال تعالى:

{... وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا * ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنْ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا} فذلك إشارة إلى تلك النعمة العظيمة وهي الرفاقة لأولئك، هو الفضل بما في الكلمة من معنى ومن غير تحديد وتخصيص، حيث أنَّه من الله سبحانه فكيف لا يكون مطلقاً، وقوله تعالى:

{ وكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا} لعلَّه إشارة إلى أنَّ هذه النعمة العظيمة، لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى وعلمه يكفي، لأنَّ العبد مهما كان ، يحبُّ أن يُظهر للناس ما وصل إليه من النعيم ليتلذذ بذلك، فلو كان الله هو المشرف على تلك النعمة فهذا أفضلٌ قطعاً.

د:المنعمون و النعمة

وهم المذكورون في الآية المباركة المتَّصفون بالصفات الأربعة:

{... مِنْ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ...}

و ربَّما اجتمعت جميعها أو بعضها في شخص واحد، والقرآن الكريم قد بيَّن حالات هؤلاء ومواقفهم وكيفية وقوعهم في الصراط المستقيم، ليكونوا قدوة لكلِّ من أراد أن يسلك هذا الطريق القويم، وبما أنَّ الموضوع يتعلَّق بالآية الأخرى من سورة الفاتحة أيضاً، فالأفضل أن نبدأ في شرحها ضمن بيان خصوصيات المنعمين و مواصفات الصراط وغيرها من الأمور المرتبطة بالصراط فقول:

{ صِرَاط الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ... } إنَّ هذه النعمة عظيمة للغاية، بل هي أعظم نعمة قد منحت الأنبياء و الصدِّيقين و الشهداء والصالحين، وبخصوص الصالحين يقول سبحانه:

{ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ }

فإذا كان ﷲ هو المتولِّي لأمورهم فهم إذاً قد وصلوا إلى الذروة في اكتساب النعمة. فما هي هذه النعمة ؟

لا شكَّ أنَّها نعمة إلهيَّة تتعلَّق بالحق المطلق وهي نابعة من أهم أسمائه تعالى ؛ تلك الصفة التِّي لها إشراف على سائر أسمائه جلَّ شأنه، وعندما نتأمَّل في الأسماء الإلهيَّة نشاهد أنَّ أعلى اسم هو **"العلي ثم "العظيم "** ففي الحديث:

((عن احمد بن إدريس عن الحسين بن عبيد الله عن محمد بن عبد الله و موسى بن عمرو و الحسن بن علي بن أبي عثمان عن محمد بن سنان قال (عن أبي) الحسن الرضا عليه السلام:...فأوَّل ما اختار لنفسه العلي العظيم لأنَّه أعلى الأسماء كلّها فمعناه الله و اسمه العلي العظيم و هو أول أسمائه لأنَّه علا على كل شئ))

ولأهمية الصفتين جعلتا في السجدة و الركوع ، وهل هناك مقام أعلى من السجدة و الركوع ؟

ففي التهذيب عن يوسف بن الحرث عن عبد الله بن يزيد المنقري عن موسى بن أيوب الغافقي عن عمه أياس بن عامر الغافقي عن عقبة بن عامر الجهني انه قال:

((لما نزلت "فسبح باسم ربك العظيم" قال لنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم: اجعلوها في ركوعكم، فلما نزلت "سبح اسم ربّك الأعلى " قال لنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم: اجعلوها في سجودكم))والعليّ هو الاسم الذي يضاهي الوليّ الذي يعني الولاية على جميع الأشياء ومنه تنبع جميع النعم و الخيرات، أعمّ من النعم المادِّية والنعم المعنويَّة:

أمّا النعم الماديَّة

فلأجل أنَّ الولاية العظمى هي منشأ جميع الخيرات كما قال تعالى:{ وَأَلَّوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا }.

وفي الحديث: **((عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالـى:" وألّو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً " قال: يعنى لو استقاموا على ولاية علي بن أبي طالب أمير المؤمنين، و الأوصياء من ولده عليهم السلام، و قبلوا طاعتَهم في أمرهم و نهيهم، لأسقيناهم ماءاً غدقاً، يقول: لأشربنا قلوبهم الإيمان، و الطريقة هي الإيمان بولاية علي و الأوصياء)).**

وأيضاً في تفسير قوله تعالى:

{وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلـونَ }

وفي الحديث عن محمد بن إسماعيل، عن الفضل بن شاذان، عن حماد بن عيسى، عن ربعي بن عبد الله:((**عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عزّ و جلّ: و لو أنَّهم أقاموا التوراة و الإنجيل و ما أنزل إليهم من ربهم، قال: الولاية))**.

والجدير بالذكر أنَّ الآية التي وردت بعدها هي آية التبليغ النازلة في شأن واقعة الغدير وهي قوله تعالى:

{ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ }.

وأمّا النعم المعنوية

وهي أهم من تلك النعم المادِّية وقد ورد في تفسير قوله تعالى:

{ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنْ النَّعِيمِ }.

((عن أبي خالد الكابلي قال دخلت على أبي جعفر عليه السلام فدعا بالغداء فأكلت معه طعاما ما أكلت طعاما قط انظف منه ولا أطيب، فلما فرغنا من الطعام، قال يا أبا خالد كيف رأيت طعامك أو قال طعامنا ؟ قلت: جعلت فداك، ما رأيت أطيب منه و لا أنظف قط و لكنى ذكرت الآية التي في كتاب الله عزّ و جلّ لتسألن يومئذ عن النعيم !قال أبو جعفر عليه السلام: لا، إنَّما تسألون عما أنتم عليه من الحق)).

وفي الحديث التالي عن الإمام الصادق عليه السلام قد بُيِّن السرّ في ذلك:

((عدة من أصحابنا عن أحمد بن محمد بن خالد عن عثمان بن عيسى عن أبي سعيد عن أبي حمزة قال: كنّا عند أبي

عبد الله عليه السلام جماعةً فدعا بطعامٍ ما لنا عهدٌ بمثله لذاذةً و طيباً و أوتينا بتمرٍ تَنظرُ فيه إلى وجوهنا من صفائه و حسنه.فقال رجلٌ: لتسألن عن هذا النعيم الذي نعمتُم به عند ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم ! فقال أبو عبد الله عليه السلام: إنَّ الله عزّ و جلّ أكرم و أجل من أن يطعمكم طعاماً فيَسُوغكُموهُ ثمّ يسألكم عنه، و لكن يسألكم عمّا أنعم عليكم بمحمد و آل محمد صلى الله عليه و عليهم))

وظاهر الآية أنَّ السؤال عن النعيم غير مختص بقوم دون قوم، بل جميع الناس مسئولون عن الولاية بما فيهم الأنبياء والصدِّيقين والشهداء والصالحين وسوف يتَّضح ذلك فيما بعد إن شاء الله تعالى.

وهناك حديث طويل في كتاب التهذيب للشيخ أبي جعفر الطوسي رضوان الله تعالى عليه بإسناده إلى الإمام الصادق عليه السلام حول أهميَّة يوم الغدير والصيام و الصلاة فيه، من خلاله نستطيع أن نتعرَّف على مستوى هذه النعمة العظيمة، حيث ارتباطه بنعمة خلق الإنسان نفسه، نشير إلى مقطع منها: **((اللهم فكما كان من شانك يا صادق الوعد يا من لا يخلف الميعاد يا من هو كل يوم في شان أن أنعمت علينا بموالاة أوليائك المسئول عنها عبادك فأنَّك قلت و قولك الحق: " ثم لتسألن يومئذ عن النعيم" وقلت: "وقفوهم انهم مسئولون " و مننت علينا بشهادة الإخلاص لك بموالاة أوليائك الهداة من بعد النذير المنذر و السراج المنير و أكملت لنا الدين بموالاتهم و البراءة من عدوّهم و أتممت علينا النعمة التي جدَّدت لنا عهدك و ذكَّرتَنا ميثاقك المأخوذ منّا في مبتدأ خلقك إيانا و جعلتنا من أهل الإجابة و ذكرتنا العهد و الميثاق و لم تنسنا ذكرك فإنَّك قلت:** "وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ" **))** و اللطيف ما في كلام رسول الله حيث قال: **((ألست أولى بكم من أنفسكم))** أو **((ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم))** وأيضاً قولهم **((اللهمَّ بلى))** و قوله **((اللهم اشهد))** المتناسبةمع الآية المباركة.

نعمة الرسالة ونعمة الولاية

وهل هناك نعمة أعظم من الرسالة ؟ لا شك أنَّها أعظم خير و أكبر نعمة وصلت إلى مستوى من الفضيلة بحيث أنَّ الله سبحانه مع غاية جوده و فرط كرمه يقول: **{ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ...}** ولكن رغم ذلك يقول سبحانه وتعالى:

{ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ...}.فلم تتم النعمة ولم يكمل الدين إلا بالولاية: **{...الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الإِسْلاَمَ دِينًا...}**وهذه الولاية كانت في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم بالأصالة و ظهرت في أمير

المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بعده، فهو مظهرها وهو خليفة الرسول ووصي الأوصياء، ومن ذلك نعرف السر في بيان القرآن الكريم وتعبيره باليأس في الآية السابقة التي نزلت في شأنه عليه السلام في يوم الغدير.

تسلسل المراتب

نرجع إلى الآية السابقة التّي بيَّنت هؤلاء الذين حظّوا بالصراط المستقيم **{ مِنْ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا}** .

والظاهر أنَّ الآية تبيِّن المقامات الأربعة حسب التسلسل في الدرجة المعنوية والكمال الروحاني ، فالنبيُّون يرجع مقامهم إلى عالم الملك و هداية الخلق ومع وصولهم إلى مقام الصدِّيقين، سوف ترتفع منزلتهم ويتكامل مستواهم وهكذا لو وصلوا إلى درجة الشهداء و الصالحين ، فكل منزلة من هذه المنازل تقرّب صاحبها إلى عالم المعنى بشكل أوسع. وأمّا مقام الصالحين هو مقام أخروي كما تدلُّ على ذلك الكثير من الآيات حيث تؤكّد :{ **وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِين}** وهذا لا ينافي أن يكون لهذا المقام جانبٌ في هذا العالم أيضاً فإنَّ الدنيا مزرعة الآخرة ولكن الصبغة العامة المخيِّمة على هذا المقام هي صبغة أخروية .

وأمّا الدليل على ما قلنا من أنَّ هذه المنزلة أعلى من تلك فهو:

1- إنَّ الأنبياء يتمنَّون الوصول إلى تلك المقامات- خصوصاً أعلاها- وهو الوصول إلى مقام الصالحين، فنراهم دائماً يطلبون هذا المقام منه تعالى كما تدل على ذلك الآية التالية :

{ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ }

2-إنَّه - سبحانه- تعظيما لمقام بعض الأنبياء، يوصفهم بأنَّهم قد جُعِلوا من الصالحين، وهذا يدلُّ على أنَّهم- بوصولهم إلى هذه المنزلة-قد وصلوا إلى الذروة في الكمال .قال تعالى :

{ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاً جَعَلْنَا صَالِحِينَ }

وأمّا التعريف على هذا المقام فسوف يظهر من خلال الحديث عن بعض الأنبياء الذين قد وصلوا إليه وسوف نبيِّن ذلك فيما بعد إن شاء الله تعالى .

ولنتحدَّث عن كلٍّ من الأنبياء الذين كانوا يطلبون الوصول إلى تلك المقامات أو أنَّهم وصلوا إليها فنقول:

إبراهيم عليه السلام

ونبدأ في الحديث عنه باعتبار أنَّه خلاصة الأنبياء السابقين عليه و الممهِّد للاحقين به:

الأجر الدنيوي و الأجر الأخروي

{... وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِين}

فهناك أجرٌ دنيوي قد أوتي إبراهيم الخليل عليه السلام و هناك أجرٌ أخروي .

أمّا الأجر الدنيوي :

ولو عرفنا ما طلبه إبراهيم وما أعطي، لاستطعنا أن نفسِّر الأجر الوارد في تلك الآية المباركة.

ماذا طلب إبراهيم وماذا أعطي ؟

قد اجتمعت طلباته عليه السلام في آيات مختلفة ،وهذه الأمور تقع في مرحلتين :

المرحلة الأولى : مرحلة دنيوية:

وهي :

1-قبول الأعمال

بعد أن حقّق هو وابنه إسماعيل إنجازاً كبيراً وهو رفع قواعد البيت : **{ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ...}قل:**

{ ...رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ }

وهو أهم ما يطلبه الإنسان فلا قيمة له و لعمله إن لم يتقبل الله منه ، ولا يتقبل الله من الإنسان إلا ضمن شروط تتمحور في أمر واحد وهو التقوى: **{ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنْ الْمُتَّقِينَ }**

والوصول إلى مرحلة المتقين يتطلّب الهداية الإلهيَّة، حيث قال سبحانه :

{ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ }

والجدير بالذكر ما في الآيتين الواردتين قبلها حيث قال :

{ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ }

وعندما نتأمّل في جملة "أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ" خاصة الأمر باتباعه نشاهد أنَّها في نفس سياق آية البلاغ النازلة في واقعة غدير خم، وقد مرَّ بيانها مضافاً إلى ما ورد بعدها حيث يقول: **{أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَاحَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ }** وفي تفسير على بن إبراهيم القمِّي: **((و اتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربّكم من القرآن و ولاية أمير المؤمنين عليه السلام و الأئمة و الدليل على ذلك قول الله عزّ و جلّ: أن تقول نفسٌ يا حسرتا على ما فرطت في جنب ،قل: في الإمام ، لقول الصادق عليه السلام : نحن جنب))**

وقد مرّ تفصيل ذلك فراجع .

2-أمن مكّة

ومن طلباته عليه السلام أن يجعل الله مكّة المكرَّمة بلداً آمناً ، والاجتناب عن كلِّ ألوان الشرك ، والاجتناب عن عبادة الأصنام له و لبنيه. **{ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ }** وقد أجيبت هذه الدعوة حيث يقول سبحانه :

{ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ }

وقال تعالى {... وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ } .

وقد فسِّر البلد الأمين بمكّة كما يدل على ذلك أيضاً قوله تعالى:

{ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ }

ولا يفوتنّك ما في كلمة **نعمة** من لطافة، فتأمّل .

3- إقامة الصلاة

{ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ* رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ }

وينبغي أن نعلم بأنَّ إقامة الصلاة مسئوليَّة خطيرة جدا، تتوقّف على التمكين في الأرض والوصول إلى مستوى الإمامة، كما يقول : **{ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ}** ومن هنا نعرف ما كان يريده إبراهيم عليه السلام في قوله :

{ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ ...}

وتترتّب على إقامة الصلاة، مسألة أخرى مهمَّة، أكدَّ عليها إبراهيم في دعائه، حيث قال:**{ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنْ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ...}**

4-محبَّة الذريّة

أن يجعل سبحانه أفئدة بعض الناس تهوي إلى ذريته بعد أن أسكنهم عند بيت الله الحرام في وادٍ غير ذي زرع:

{ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنْ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ...}

فالغاية هي حبّ الناس للذريَّة ومن ثمَّ يطلب منه تعالى أن يرزقهم من الثمرات ، كلُّ ذلك لأجل أن يشكروا الله سبحانه : **{...وَارْزُقْهُمْ مِنْ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ }.** ومن هنا نعرف أهميَّة الشكر لله سبحانه وتعالى الذي جعل غاية لجميع تلك الأمور ، والجدير بالذكر ما ورد في قوله تعالى :

{ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ }

وهذه الآية تفسِّر تلك الآية ، فأراد إبراهيم عليه السلام أن يرزق الله الثمرات خصوص من يهوي إلى الذرية في تلك الآية وبيَّن مواصفات هؤلاء في هذه الآية وهي أنَّهم هم المؤمنون بالله و اليوم الآخر، وهذا يعني أنَّ من لا يحبُّهم- عليهم السلام- فلا إيمان له بالله و اليوم الآخر. و قد أمضى سبحانه ذلك حيث قَالَ **"وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً "** وهذا يعني أنَّ من لا تهوي قلبه إليهم، فهو كافر بالله واليوم الآخر وقد بيَّن سبحانه مصيره في الآية .

وقد حقق الله تلك الأمنية حيث رزق أهل هذا البلد الثمرات ولهذا يقول :

{... أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا ...}

فهي للمؤمنين منهم خاصة و يمتِّع منها الكافرين الذين لا يوالون أهل البيت عليهم السلام قليلاً ليعذِّبهم بعد ذلك عذاب النار باضطرار وكراهية .

وقال تعالى: { الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ ...} . وقال: { ... وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ...}

5-الإسلام

ومن أهم الأدعية التي دعا بها إبراهيم الخليل أن يجعله الله وابنه إسماعيل مسلمَين ومن ذريته أمَّة مسلمة حيث قال : **{ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ... }**

ومن الواضح أنَّ المقصود من الإسلام هاهنا ليس هو القول فحسب بل هو الإسلام الذي تحدَّث عنه تعالى:{ **وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}**

ثم قال :{ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا...} .**

فالإسلام في الآية هو الإسلام الخاص وهو أعلى من الإيمان العام الذي غالباً ما يذكر في بداية الآيات حيث يقول"**يا أَيُّها الذين آمنوا**".

هذا :

وقد وصل تسليمهما إلى مستوى التضحية بالنفس في سبيل الله تعالى **{ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ }**، غير أنَّ أوَّل المسلمين مرتبة و زماناً هو الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله ، والله سبحانه يخاطبه بقوله :

{ قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ }

فهو كان يتَّبع دين الإسلام و يسير على خطى الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلَّم كما قال تعالى :

{ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ }

وقد جاء في الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : **((كان على دين محمَّد (ص)))**

6- رؤية المناسك

ثم يطلب من الله سبحانه أن يريهما مناسكهما حيث يقول :

{...وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ...}

وذلك لأنّ الله قد جعل لكلِّ أمَّة منسكاً حيث يقول :

{ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ... }

والظاهر أنَّ المراد من المناسك هي أعمال الحج، وقيل أنَّ المراد من الرؤية هو رؤية أماكن أداء النسك ولكن الظاهر أنَّها الرؤية القلبية الباطنية و الروحية ومشاهدة الجانب الملكوتي من المناسك الذي هو حقيقة جزاء العبد ، وحيث يرى نفسه وابنه مقصِّران في أداء التكليف يقول:

{ وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ...}

وقد استجاب الله دعاءه هذا حيث قال مخاطباً خاتم النبيين :

{ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ ، قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }

وهذا يدلُّ على أنَّ إبراهيم الخليل عليه السلام - **بالفعل** -كان قد وصل إلى القمَّة في أداء النسك، حيث يخاطب سبحانه محمَّداً صلى الله عليه وآله وسلَّم أن يقرر حنيفيَّة إبراهيم (ع).

7-بعثة الرسول(ص)

وأخيراً يدعو ربَّه أن يبعث في ذريته رسولاً منهم ، ومن الواضح أنَّه يشير إلى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلَّم وإلى دينه الحنيف. **قال تعالى** :

{... رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }

وقد استجيب هذا الدعاء المهم بأن منَّ الله على المؤمنين ببعث الرسول صلوات الله وسلامه عليه وآله حيث قال:

{ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ }

واللطيف ما ورد في قوله تعالى: **{ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاَكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ }**

هذا:

وكلُّ هذه النعم وإن كانت معنوية ولكنَّها دنيوية أيضاً ولا منافاة بينهما، بل المفروض أن تستغل الدنيا في الوصول إلى الكمال المعنوي. قال تعالى :

{وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا}

{ ... وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ...} {... وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ... }

ومن خلال الآيات التّي مرَّت علينا، نعرف أنَّ الطابع المخيِّم على جميع حوائج إبراهيم عليه السلام هو الاهتمام البالغ بالذريَّة التّي سوف تأتي بعده، حيث كان يؤكّد على ذلك كثيراً ، فعندما منح إسماعيل وإسحاق قال: **{ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ }**

المرحلة الثانية : الأمور الأخرويَّة

وهذه التي نركّز عليها في بحثنا أعني الصراط المستقيم وهي :

1-غفران الذنوب

فهو عليه السلام يطلب من الله أن يغفر له ولوالديه وللمؤمنين حيث يقول:

{ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ } وهو يوم عظيم **{ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ }** ليس هذا لسان إبراهيم فحسب، بل جميع الأنبياء ، فهذا نوح عليه السلام يقول :

{ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَارًا }.

وموسى يدعو ربَّه بقوله:

{ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ }

2-الإلحاق بالصالحين

فهو عليه السلام رغم كونه صدِّيقاً نبيّاً كما يصرِّح بذلك سبحانه : **{ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا}.**

ولكن مع ذلك كان يطلب من الله سبحانه أن يلحقه بالصالحين ويجعل له لسان صدق في الآخرين كي يرثه، كما قال تعالى: **{ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ * رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ * وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ }**

وقد تحدَّثنا عن هذا اللسان في تفسير مالك يوم الدين فراجع .

والآيات التالية تدلُّ على استجابة هذا الدعاء وقد بينت بعبارات ثلاثة تفسِّر بعضها البعض:

الف : الأجر :

و الأجر هو ما يعود من ثواب العمل دنيوياً كان أو أخروياً ، وقد عبَّر سبحانه " **أجره** " فيدلُّ على أنَّه أجر دنيوي خاص به عليه السلام.

قال: { وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِين }

ومادام قد آتاه الله هذا الأجر، فهو إذاً مقدَّس روحاني رغم كونه في الدنيا.

ب : الاصطفاء :

{...وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنْ الصَّالِحِين }

قال الراغب في المفردات : " والاصطفاء تناول صَفْو الشيء كما أن الاختيار تناول خيْره والاجتباء تناول جبايته، واصطفاء الله بعض عباده قد يكون بإيجاده تعالى إيّاه صافيا عن الشوب الموجود في غيره"

وهذا يعني وصوله إلى مرحلة الخلوص الكامل الذي يجعله في الصراط المستقيم بحيث لا تتسرَّب إليه وساوس الشيطان، كما **قال تعالى: { قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ }**

ج : حسنة :

وهناك آية أخرى تبيِّن المقصود من الاصطفاء الدنيوي ، يقول سبحانه :

{...وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ }

فبعد أن هداه الله إلى الصراط المستقيم، آتاه في الدنيا حسنة. والجدير بالذكر ما ورد بعد قوله تعالى :

{ قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ } فالحسنة هي مودَّة قربى الرسول، فهي أساس جميع النعم حيث أنَّهم -عليهم السلام - أولياء النعم وعناصر الأبرار ودعائم الأخيار . ومن هنا يمكننا معرفة حقيقة الحسنة في الآية التالية التي تقول:

{ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}

واللطيف أنَّها وردت ضمن آيات الحج والإفاضة من عرفة إلى المشعر الحرام ثمَّ الانتقال إلى منى ، فالمتأمِّل عندما يضمها مع ما مرَّت من الآيات خصوصاً قوله تعالى :**{ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنْ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ...}**، يصل إلى حقائق كثيرة.

وهناك مهمَّة أخرى أعظم من تلك، تتعلَّق بذرِّيته في المستقبل وتتوقَّف على أمرٍ رئيسي وهو:

3-الحصول على الصالحين

وهو دعاء آخر يختلف عن السابق حيث يطلب من ربِّه أن يهب له من الصالحين الذين أنعم الله عليهم الصراط المستقيم ، قال:

{ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ الصَّالِحِينَ }

وقد تحقّقت هذه الأمنية في شخصيات صالحة قد بيَّن سبحانه عدداً منهم فقال:

إسحاق ويعقوب (ع)

وإسحاق هو نبيٌّ صالح فهو مصداق أتمّ للذين أنعم الله عليهم لأنَّه يقول:**{وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ }** والجدير بالذكر ما ورد في شأنه كما ورد في شأن إسماعيل من أمرين :

1-أنَّهما مباركان :

حيث يقول: **{ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ ...}** وهذا لا ينافي وجود من هو ظالم لنفسه أي غير معصوم في ذريتهما، كما ورد في نفس الآية، حيث قال: {...**وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ }** فالمحسن منهما إمام و **{...لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ }** في أي مستوى من الظلم كانوا لأنَّ حسنات الأبرار سيئات المقربين

وأمّا البركة فأصلها :

"صدر البعير ، وبرك البعير ألقى ركبه واعتبر منه معنى الملزوم وسمى محبس الماء بركة ، والبركة ثبوت الخير الإلهي في الشيء وقال تعالى: (لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) وسمى بذلك لثبوت الخير فيه ثبوت الماء في البركة والمبارك ما فيه ذلك الخير على ذلك (وهذا ذكر مبارك أنزلناه) تنبيها على ما يفيض عليها من الخيرات الإلهية. وقال: (كتاب أنزلناه إليك مبارك) وقوله تعالى (وجعلني مباركا) أي موضع الخيرات الإلهية "

هكذا في المفردات بتلخيص .

وعلى ضوء ذلك يمكننا أن نعرف معنى قوله تعالى جواباً لسارة امرأة إبراهيم حيث :

{ قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَ أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ}

فأجابها الملائكة :

{ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ }

والبيت هو بيت إبراهيم النوراني المستمرّ في ذريته المحسنين ، وقد ورد في الكافي حديث طويل عن جابر بن عبد الله الأنصاري عن أبي جعفر عليه السلام ، يفسِّر الآية المباركة وأنَّها نزلت في شأن أهل البيت عليهم السلام فراجع.

2-أئمة يهدون بالأمر

وقال تعالى :

{ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاً جَعَلْنَا صَالِحِينَ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ

الصَّلاَةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ }

و النافلة هي المنحة والفضل من الله تعالى ، وقد ورد في الحديث :

((قر الفزارى عن احمد بن الحسين الهاشمي عن محمد بن حاتم عن الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: و جعلنا منهم ائمة يهدون بأمرنا، قال: نزلت في ولد فاطمة عليها السلام))

وفي كنز العمّال بالإسناد عن أبي جعفر عليه السلام في تفسير الآية قال: ((**يعنى الأئمة من ولد فاطمة يوحى إليهم بالروح في صدورهم))**

إسماعيل (ع)

وقال تعالى: { فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلاَمٍ حَلِيمٍ} وهو إسماعيل (ع) ، وقد وردت في شأنه آيات كثيرة تؤكّد على أنَّه من الذين أنعم الله عليهم بالصلاح والدخول في الرحمة الإلهية ومن ثمَّ الاهتداء إلى الصراط المستقيم . فلنتدبَّر في النقاط التالية:

1-كلمة الصالحين الواردة في قوله تعالى :

{ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنْ الصَّابِرِينَ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنْ الصَّالِحِينَ }

2-الهداية إلى الصراط المستقيم .

{ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاً فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}

3-التأكيد على أنَّ الهداية هي هدى الله وأنَّها تختص بعباد الله في الآية التي بعدها وهي :

{ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} فهي تنسجم مع قوله تعالى: **"اهدنا الصراط المستقيم"** الواردة بعد قوله: **"إياك نعبد".**

4-الأمر بالإقتداء بهداهم ثمَّ التركيز على أجر الرسالة في الآية الأخيرة وهي :

{ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمْ اقْتَدِهِ قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ}وقد مرَّ الحديث عنها فراجع .

الإقتداء بإبراهيم عليه السلام

إنَّ الله سبحانه وتعالى يركّز على تبعيَّة ملّة إبراهيم، وهو الدين الإسلامي الحنيف ، قال تعالى:

{ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنْ الصَّالِحِينَ }

فكلّ من لا يشتاق إلى ملّة إبراهيم فهو قد سفه نفسه بيده و ابتعد عن البصيرة والتعقل ، فمن الذي لا يحب الإقتداء بمن اصطفاه الله ؟ ومن الذي لا يرغب في أن يكون من الصالحين في الآخرة ؟ .

مميزات إبراهيم

قد بيَّنا مواصفات إبراهيم الخليل -عليه السلام - وهي تتلخَّص في أمور :

الف: كونه أمّة قانتاً: { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ }

ب:شكره للنعم . { شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ } وعلى أثر ذلك استطاع الوصول إلى نتائج أربعة هي:

الف: الإجتباء {...اجْتَبَاهُ }ب: الهداية إلى الصراط المستقيم {وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } ج : الحسنة في الدنيا { وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ...} د : كونه في الآخرة من الصالحين { وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ }.

الرسول الأكرم (ص) يتَّبع ملة إبراهيم

{ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } ونستفيد من كلمة **"ثم"** أنَّ هناك فاصلاً زمنياً بين إبراهيم عليه السلام وبين الرسول الأكرم (ص) وقد بيَّنا سابقاً أنَّه (ص) مع ذلك أوّل المسلمين، ومن هنا قال تعالى :

{ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ}

ومن ناحية أخرى يخاطب الله رسوله فيقول:

{ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ } فالدين القيِّم هو الهداية إلى الصراط المستقيم وهو ملّة إبراهيم وقد وردت أحاديث كثيرة أنَّ الموالين لعليٍّ عليه السلام هم على ملّة إبراهيم، نشير إلى بعضها. **ففي** تفسير العياشي

((عن حبابة الوالبية قال : سمعت الحسين بن على عليهما السلام يقول : ما أعلم أحدا على ملة إبراهيم إلاّ نحن وشيعتنا))

((عن اسحق بن عمار عن عباد ابن زياد قال : قال لي أبو عبد الله عليه السلام : يا عباد ما على ملة إبراهيم أحد غيركم))

وفي أصول الكافي بإسناده :

((عن عبد الله بن عجلان عن أبى جعفر عليه السلام في قوله تعالى : {إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ{قال: هم الأئمة عليهم السلام ومن اتبعهم))

الرسول الأكرم محمد(ص) على صراط مستقيم

ثمّ مع النظر إلى ما مرَّ من قوله تعالى :**{ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ }** يمكننا أن نعرف

ما تشير إليه الآية المباركة حيث يقول سبحانه :**{ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ }**

وقد وردت أحاديث كثيرة حول **السؤل** نشير إلى حديث واحد فقط وهو :

((الحسين بن محمد عن معلى بن محمد عن محمد بن أورمة عن على بن حسان عن عمه عبد الرحمن بن كثير قال :قلت لأبي عبد الله عليه السلام : في قوله : { وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ }قل : إيانا عنى ونحن أهل الذكر ونحن المسئولون))

وقال تعالى مخاطباً رسوله :

{ يس ، وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ، إِنَّكَ لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ ، عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ }

و قد وردت آية في شأن إبراهيم الخليل مخاطباً أباه :**{ يا أبتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنْ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا }**

هذا

ولا يختص الأمر بإبراهيم الخليل بل جميع الأنبياء كانوا يتمنَّون الاجتباء و الاهتداء إلى الصراط المستقيم.**قل تعالى :**

{وَ زَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَ إِلْيَاسَ كُلٌّ مِنْ الصَّالِحِينَ ، وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاً فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ، وَمِنْ آبَائِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ }

وعند بيان منزلة سليمان، يقول سبحانه :

{ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ، فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ}

ولعلَّ النعمة التي تداركت يونس (ع) الولاية الإلهيَّة في قوله تعالى :

{ لَوْلاَ أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ، فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنْ الصَّالِحِينَ}

ولا يخفى أنَّ الآية الثانية تؤكّد على ذلك حيث صار عليه السلام من الصالحين .

أمّا سائر الأنبياء فقد تحدَّث عنهم القرآن أيضاً و ميَّز عدداً منهم بأنهم رفعوا مقاماً علياً، كما ورد عن إدريس وذلك بعد أن كان صدِّيقاً نبياً . **ثم قل:** {**وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا**} **ثم قل:** { **أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا...}**

حقيقة الصراط المستقيم

من خلال الآيات السابقة تعرفنا على الصراط المستقيم أنَّه هو الطريق الذي يُسلك وهو غير السالك ؟ فهاهنا سؤال يطرح نفسه وهو:

ما هو الصراط ؟ هل هو جسر مادي؟ أم هو رأي وفكر ؟ لا شكَّ أنَّه ليس مادِّياً بل هو أمر معنوي ، فالقرآن بصريح العبارة أكَّد على أنَّه كذلك فهو خطٌ فكري متمثِّل في شخصيات عظيمة هي الأسوة في الدنيا والآخرة.

يقول الإمام الخميني قدِّس سرّه :

" إن حقيقة الصراط هي الصورة الباطنية للولاية ، كما ورد في الأحاديث الشريفة أن أمير المؤمنين عليه السلام هو الصراط . وفي حديث آخر : نحن الصراط المستقيم . وفي الزيارة المباركة الجامعة الكبيرة: " أنتم السبيل الأعظم والصراط الأقوم " فمن كان على هذا الصراط مستقيماً في حركته في الحياة الدنيا ، ولم يضطرب قلبه، لما اضطربت أيضاً أقدامه على الصراط في الحياة الآخرة ، وإنما يجتازه كالبرق الخاطف "

وهناك شواهد كثيرة تؤكِّد على أنَّ الصراط هو الولاية.

في كتاب معاني الأخبار بإسناده إلى أبى عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل : ((اهدنا الصراط المستقيم))قال : هو أمير المؤمنين ومعرفته الدليل على انه أمير المؤمنين قول الله عز وجل: ((وانه في أم الكتاب لدينا لعلى حكيم)) وهو أمير المؤمنين عليه السلام في أم الكتاب في قوله : ((اهدنا الصراط المستقيم)) .

وهذا لا ينافي الأحاديث الواردة في بيان الصراط في الآخرة وأنَّه جسر على جهنَّم لأنّ عالم الآخرة ليس عالم المادة بل هو تجسيد للحقائق و كشف السرائر وظهور باطن الأشياء. ففي الحديث :**((بإسناده إلى المفضل بن عمر قال :سألت أبا عبد عليه السلام عن الصراط فقال : هو الطريق إلى معرفة الله عز وجل، وهما صراطان : صراط في الدنيا وصراط في الآخرة، فأما الصراط في الدنيا فهو الإمام المفترض الطاعة، من عرفه في الدنيا واقتدى بهداه، مرّ على الصراط الذي هو جسر جهنم في الآخرة ومن لم يعرفه في الدنيا، زلّت قدمه عن الصراط في الآخرة، فتردىّ في نار جهنم))**

خصائص الصراط

وردت أحاديث تبيِّن خصائص الصراط كالحديث التالي:

((بسعدان بن مسلم عن أبى عبد قال : سألته عن الصراط فقال : هو أدق من الشعر وأحدّ من السيف، فمنهم من يمرّ عليه مثل البرق ومنهم من يمرّ عليه مثل عدو الفرس ومنهم من يمرّ عليه ماشيا ومنهم من يمرّ عليه حبواً ومنهم من يمرّ عليه متعلقا فتأخذ النار منه شيئا وتترك منه شيئا))

ومن الواضح أنَّ الدقَّة و الحدَّة الموجودة في الصراط، ليست مادِّية بل معنويَّة، فمن التزم بالصراط في الدنيا، فهو الذي سوف

يتمكّن من السير عليه في الآخرة. والحديث التالي دليل على ذلك :

((علي بن إبراهيم عن محمد بن عيسى عن يونس عن مفضل بن صالح عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال:قال النبي صلى الله عليه وآله : أخبرني الروح الأمين أن الله لا إله غيره إذا وقف الخلائق وجميع الأولين والآخرين أتي بجهنم ثم يوضع عليها صراط أدقّ من الشعر وأحدّ من السيف، عليه ثلاث قناطر: الأولى عليها الأمانة والرحمة ، والثانية عليها الصلاة ، والثالثة عليها عدل ربّ العالمين، لا إله غيره فيكلفون الممر عليها فتحبسهم الرحم والأمانة ، فان نجوا منها حبستهم الصلاة ، فإن نجوا منها كان المنتهى إلى رب العالمين جل ذكره وهو قول الله تبارك وتعالى: "إن ربك لبالمرصاد")) والجدير بالذكر ما ورد عن الإمام أبي الحسن الماضي عليه السلام في تفسير قوله تعالى: "أفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ "قال: إن الله ضرب مثل من حادّ عن ولاية علي كمثل من يمشى على وجهه لا يهتدي لأمره وجعل من تبعه سويا على صراط مستقيم و الصراط المستقيم هو أمير المؤمنين عليه السلام)).

والشيطان بطبيعته عدوّ للناس، يقول: { **فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ، ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ} ((قال أبو جعفر عليه السلام: يا زرارة إنه إنما صمد لك و لأصحابك فأما الآخرون فقد فرغ منهم))**

الاهتداء إلى الصراط المستقيم

الأسلوب الوحيد الذي يوصل الإنسان إلى درجة الصدِّيقين و الشهداء ينحصر في أمرين رئيسيين، أكّد عليهما القرآن الكريم في مواطن كثيرة وهما:

"الإيمان و العمل الصالح"

أما الإيمان فينبغي أن يكون بالله واليوم الآخر ورسله التي هي الأسس الرئيسية الثلاثة للعقيدة. **قال تعالى: { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ }**

وأمّا العمل الصالح فقد بيَّن سبحانه أهم مصاديقه في قوله : **{ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ }**

ولا يخفى عليك أنَّ مفهوم الخيرات، مفهوم عام يشمل جميع الأعمال الصالحة فالمهمّ فيها المسارعة وهي تشير إلى الرغبة الكبيرة إلى أدائها والعشق البالغ في إيجادها ، وأبرز من تلك الآيات هي الآية التالية التي تجعلهم هم الصدِّيقين و الشهداء حيث يقول :

{ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمْ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ...} وقال تعالى : { أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا

فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }

النور هو الإمام

فما هو هذا النور؟ مع تتبع الآيات والأحاديث نعرف أنَّ النور إنَّما هو الإمام سلام الله عليه فهو الذي يستضيء به المؤمن على الصراط وهو نور معنوي ، فالإمام هو الذي يتقدَّم بين يدي المؤمن. وقد ورد في شأن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلَّم :

{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ، وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا } وقال تعالى **{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا }** وقال : **{ قَدْ جَاءَكُمْ مِنْ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ، يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}** وفي الحديث : **((المؤمن ينقلب في خمسة من النور : مدخله نورٌ ، ومخرجه نورٌ ، وعلمه نورٌ ، وكلامه نورٌ ، ومصيره إلى الجنة يوم القيامة نورٌ))**

قال الإمام الخميني قدِّس سرّه :

"ولـهذا النور مراتب ، حسب مراتب إيمان وعلم ذوي النور. ولابد من معرفة أن هذا النور الحقيقي الموجود في قلوب أهل الإيمان والعلم ، لما كان من أنوار عالم الآخرة ، ينير في عالم الآخرة حسب فعالية النفس بالنور الحسي. وحيث أن هذا النور هو الذي ينير الصراط ، يكون نور طائفة مثل نور الشمس وأخرى مثل نور القمر حتى ينتهي الأمر إلى نور يضيء أمام قدميه فقط))

وهذا النور لشدَّته سوف ينتقل إلى المؤمن الحقيقي نفسه ، ذلك لأنَّه قد انسجم مع إمامه انسجاماً كاملاً. في الحديث عن النبي الأكرم محمد صلوات الله عليه وآله : **((إذا مرّ المؤمن على الصراط طفئت لهب النيران و يقول: جز يا مؤمن، فإن نورك قد أطفأ لهبي)) .**

هذا وهؤلاء الصالحون هم الذين سوف يرثون الأرض لا محالة كما في قوله تعالى : **{ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ}**

وسوف تشرق الأرض بنورهم و يعمّ الخير جميع الموجودات ويزول الظلم من العالم تماماً بلطف الله تعالى و رحمته، إنَّهم يرونه بعيداً و نراه قريباً. نسأل الله تعالى أن يوفّقنا لمشاهدة تلك النورانية الشاملة بظهور إمامنا **المهدي** عجَّل الله تعالى فرجه الشريف .

****

{ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ }

قبل أن نتعرَّف على المغضوب عليهم والضالين ينبغي أن نقدِّم أموراً خمسة:

الأمر الأول : اختلاف الصِيَغ

مما يثير انتباه القارئ للآية الأخيرة من سورة الحمد هو اختلاف الصيغ الواردة فيها فهي على أشكالٍ ثلاثة :

الأول: أنعمتَ عليهم : فهي قد وردت فعلاً ماضياً مع تاء الخطاب المتوجِّه إلى الله تعالى ، ذلك لأنَّ النعمة تكون منه وإن كان للعبد دور ما في تحصيلها.

الثاني: غير **المغضوب** عليهم: وهي ليست بفعلٍ بل اسم مفعولٍ مشتق من فعلٍ لم يسمَّ فاعله، فالمغضوب عليهم معلوم إلا أن الذي حلَّ الغضب على هؤلاء، غير مذكور وهذا بخصوص **أم الكتاب** الذي له دور الأمومة لجميع الآيات الأخرى، وهو المفسِّر لتلك الآيات فهناك آيات كثيرة تؤكِّد على أنَّ الغضب إنَّما هو من الله جلّ شأنه ولكن بعد أن وصل العبد إلى مستوى من العصيان بحيث كان يستحقُّ حلول الغضب واللعن عليه كما هو شأن بني إسرائيل الذين باءوا بغضب من الله.

الثالث : و لا الضالين : وهو اسم فاعلٍ لازم غير متعدٍ إلى المفعول به ، وهذا يعني أنَّ الضال هو لا غير ومن هنا يمكننا أن ننطلق إلى الآيات الأخرى الواردة في حقيقة الضلال و أصله ونعرف السر في استناده إلى العبد تارة وإلى الله أخرى كما سيأتي.

الأمر الثاني : التقسيم الثلاثي للإنسان الهابط

ونعني من الإنسان الهابط ، الإنسان الذي تورَّط في عالم الدنيا والمفروض أن ينتقل منها بسلام.

فالسورة المباركة بما أنَّها تبيِّن الصراط المستقيم المتجسِّد في الولاية الإلهيَّة، تقسِّم كافة الناس الذين هبطوا من دار كرامة الله و تورَّطوا في عالم الدنيا إلى ثلاثة أقسام رئيسيَّة:

1-**الذين أنعم الله عليهم**، وهم الذين تحدَّثنا عنهم تفصيلاً.

2-**المغضوب عليهم**، وهم المبعَدون عن الرحمة الإلهيَّة العامَّة لسائر الناس وهم أشد الناس انحطاطاً و سقوطاً.

3-**الضالين**، وهم لم يبعدوا عن الرحمة العامَّة حيث لم تحلّ عليهم غضب الله، بل هناك أملٌ في رجوعهم إلى الصراط المستقيم، وهذا يرجع إلى سعيهم في ذلك.

الأمر الثالث: الصفتان في اللغة و الشرع

قال الراغب الإصفهاني في المفردات:

"الغضب: ثوران دم القلب و إرادة الانتقام ... و إذا وصف الله تعالى به فالمراد به الانتقام دون غيره .

الضلال: العدول عن الطريق المستقيم ويضاده الهداية ،ويقابل الضلال لكلِّ عدول عن المنهج عمدا كان أو سهوا ، يسيرا كان أو كثيراً ."

وفي الحديث عن الإمام الرضا عليه السلام في قوله "غير المغضوب عليهم" : ((**استعاذة من أن يكون من المعاندين الكافرين المستخفين به وبأمره ونهيه**))

وعنه عليه السلام في تبيين قوله تعالى "و لا الضالين": ((**اعتصام من أن يكون من الذين ضلّوا عن سبيله من غير معرفة وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا**)).

الأمرالرابع : النسبة بين المغضوب عليهم و الضالين

عند مراجعة القرآن الكريم يمكننا أن نعرف النسبة الموجودة بين المغضوب عليهم وبين الضالين وهي نسبة **العموم والخصوص المطلق** بمعنى أنَّ الضالين أعمّ من المغضوب عليهم فكلُّ من غضب الله عليه فهو ضال دون العكس، وذلك لأن الضلالة تقابل الهداية كما تدلُّ عليه الآيات الكثيرة قال تعالى:

{ فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ. . . }

وقال تعالى:

{. . . مَنْ يَشَأ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ }

فالذي لا يسير على الصراط المستقيم يُعتبر ضالاً أياً كان، سواء غضب الله عليه أم لم يغضب .

الأمر الخامس : منشأ الهداية و الضلالة

المستفاد من القرآن الكريم أنَّ الهداية و الضلالة تنشئان ممن يقود الأمَّة وهو الإمام الذي يؤمّ الناس، فهو إن كان إمام هدىً، فيهتدي به الناس و إن كان إمام ضلال، فيضلّ به الناس:

{ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً }

وقد فسَّر سيد الشهداء -عليه السلام - الآية المباركة و هو في منزل الثعلبية حيث ورد عليه رجل يقال له بشر بن غالب فسأله عن الآية المباركة، فقال عليه السلام:

((إمام دعا إلى هدىً فأجابوه إليه، وإمام دعا إلى ضلالة فأجابوه إليها، هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار))

ثمَّ يقول سبحانه:

{ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً }

وذلك لأنَّ في الآخرة تجسُّد للملكات التّي يتّصف بها الإنسان في الدنيا فالذي لا يتّبع إمام هدىً فهو ضالّ عن سبيل الله لا محالة لأنه لا يرى طريقه كي يمرَّ عليه حيث لا وليَّ له قال تعالى:

{ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وَجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا }

فالسرائر سوف تنكشف هناك حيث قال تعالى:

{ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ }

وليعلم:

أنَّ اللطف الإلهي يقتضي هداية الناس إلى الطريق القويم و الصراط المستقيم، فمن يتخلَّى عن ذلك، فلا محالة سوف ينحرف فيقع على خلاف الجهة الإلهيَّة، ومادام لم يبتعد كلَّ الابتعاد عن المقصود وهناك أملٌ في رجوعه، فسوف لا يتركه ربّه بل يدعوه أن يرجع إلى فطرته الأولى و ينهيه عن الاستمرار في مسيرته و يحرِّضه إلى التوبة والإنابة و الرجوع، وهذا ما تدلّ عليه جميع الآيات الناهية رغم اختلاف المنهي عنه وهي كثيرة قد بيَّت بنحو كلّي و تطرَّقت إلى المصاديق الخاصة وأهمّها الآيات التي تنهى عن تبعيَّة المضلّين وأقربها إلى ما نحن بصدد بيانه قوله تعالى:

{ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ }

فجميع السبل هي التي تفرِّق الإنسان عن سبيل الله.

قال تعالى:

{ اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ}

فالمشكلة كامنة في تبعيَّة الأولياء الذين هم من دون **ما أنزل** إلى الناس من ربِّهم وقد بيَّنا المقصود من ما أنزل إليهم من ربِّهم وهي الولاية الإلهية فراجع . ومن الواضح أنَّ سبيل هؤلاء هو سبيل المفسدين حيث قال تعالى:

{ وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ }

ثم

إنَّ الظاهر كما أنَّ أصحاب الصراط المستقيم لهم تشخُّص و تعيُّن خاص في العالم الخارجي، كذلك الفرقتان لهما وجود في العالم الخارجي والله يشير إليهما على لسان عباده وهم يطلبون الهداية إلى الصراط المستقيم فيقولون: { **صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ**

عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ } خصوصاً في الصلاة الذي هو من أهم الأركان العبادية التي يمارسه الإنسان طوال معيشته في الحياة الدنيا في كلِّ عصر ومصر ، فإذاً لكلٍّ من الفريقين وجود في العالم الخارجي ، هذا هو الظاهر من السورة فمن هم إذاً ؟

المغضوب عليهم

فلنبدأ بالصفة الأولى وقول:

إنَّ القرآن الكريم قد بيَّن المغضوب عليهم في آيات مختلفة ولكن الملاحظ أنَّه تعالى ركَّز على اليهود خاصَّة وهم بنو إسرائيل وذلك لاتصافهم بمواصفات سيئة. لذلك من اللازم أن نتطرق إليهم أولاً ثم نتعرَّف على الأسباب التي أدَّت إلى حلول غضب الله عليهم كأمَّة منحرفة عن الصراط المستقيم ثانياً. وأخيراً نستخرج الأمور العامَّة التي ينبغي أن يتجنب عنها المؤمنون كأمَّة و كأفراد كي يصانوا من الغضب الجماعي والفردي .

بنو إسرائيل

قال تعالى في شأنهم :

{ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ }

فهم قد فضِّلوا على العالمين كمجتمع يقوده نبيّ له الولاية الإلهية ، والمفروض أن يقدِّروا تلك النعمة ويعظموها لأنَّها كانت منشأً لسائر النعم المادِّية و المعنوية :

{ سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ }

ولكنَّهم بدَّلوا نعمة الله و طغوا فانحرفوا عن الصراط واستمرَّت المفاسد واحدة تلو الأخرى، تواجههم جرَّاء السقوط، كما قال تعالى مخاطباً بني إسرائيل :

{ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلاَ تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى }

ثم إنَّ سورة البقرة قد فصَّلت هذا الأمر حيث قال تعالى :

{ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمْ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ }

فالمشكلة تكمن في عدم الإيمان بموسى عليه السلام رغم جميع البركات والخيرات التّي كان عليه السلام يحملها لهم كتضليلهم بالغمام و أكلهم الطيبات التي هي نتائج طبيعية لشمولية الولاية الإلهيَّة :

{ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمْ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ }

ثمّ : يذكرهم الله تعالى بأمر آخر ألا وهو :

{ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ }

والأحاديث تركّز على أنَّ الولاية هي باب حطَّة :

((أمير المؤمنين عليه السلام في حديث طويل : ونحن باب حطّة))((في كتاب التوحيد بإسناده إلى أبي بصير عن أبى عبد الله عليه السلام قال : قال أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته : أنا باب حطته))((و روى عن الباقر عليه السلام قال :قل : نحن باب حطتكم))

سيأتي شرح ذلك في سورة البقرة إن شاء الله تعالى. ولكن المشكلة وقعت عندما خالفوا هذا الأمر:

{ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ }

إلى أن يقول :

{ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمْ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنْ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ }

فمشكلة هبوط مصر هي التّي كانت أم المشاكل لأنَّها جرَّتهم إلى الذل و الانحطاط فقد باءوا بغضب من الله ، فمكانهم المناسب كان يشتمل على الغضب، فكيف بغيره من الأمكنة.

وفي الواقع إنَّما غضب الله عليهم لأنَّهم تركوا هارون و توَّجَّهوا نحو العجل حيث يقول :

{ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ }

والآية الأخيرة تبيِّن موطن كلٍّ من الغضب والذلَّة ، فالغضب موطنه الآخرة و الذلَّة موطنها الدنيا وإن كان بينهما ترابط وثيق وكلٌّ ينعكس على الآخر .

والأحاديث أيضاً تؤكّد على أن المصداق البارز للمغضوب عليهم هم بنو إسرائيل أعني اليهود. ففي مجمع البيان عن رسول الله صلى الله عليه وآله :

((إن الله تعالى منَّ عليَّ بفاتحة الكتاب إلى قوله ، " غير المغضوب عليهم " اليهود " ولا الضالين " النصارى .))

وفي الاستبصار روى الحسين بن سعيد عن حماد بن عيسى عن معوية بن وهب **قل** : قلت لأبي عبد الله عليه السلام :...**إلى أن قل :((" غير المغضوب عليهم ولا الضالين " ؟قل : هم اليهود والنصارى))** والظاهر أنَّ هذا من باب اللف والنشر

فمفهوم الحديث هو نفس الحديث السابق .

وليعلم أنَّه من خلال ما ذكرناه لا يستنتج بأنَّ اليهود هم المغضوب عليهم فقط بل هم الضالون أيضاً، كما يستفاد من بعض الآيات القرآنية خصوصاً عند ملاحظة معنى كلمة الضلال في اللغة و الشرع ، ولكن لأنَّ صفة المغضوب عليهم هي أشدّ و أغلظ، فلا داعي لتوصيف المغضوب عليهم بالصفة الثانية أعنى الضلال .

وقد وردت الآية التالية أيضاً في شانهم حيث قال تعالى :

{ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ }

في تفسير الإمام أبي محمد الحسن العسكري (ع):

((قوله تعالى: "غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ "قال الإمام عليه السلام : قال أمير المؤمنين عليه السلام : أمر عز وجل عباده أن يسألوه طريق المنعم عليهم وهم : النبيون والصديقون والشهداء والصالحون وأن يستعيذوا به من طريق المغضوب عليهم وهم اليهود الذين قال الله تعالى فيهم :" قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ "وأن يستعيذوا به من طريق الضالين وهم الذين قال الله تعالى فيهم : " قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ" وهم النصارى . ثم قال أمير المؤمنين عليه السلام : كل من كفر بالله فهو مغضوب عليه وضال عن سبيل الله عز وجل))

حرمة تولي اليهود

لقد نهى الله سبحانه وتعالى تولّي هؤلاء القوم حيث قال:

{ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنْ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ }

فهم ليسوا بكفّار بالمعنى الأخصّ للكلمة بل هم أهل الكتاب وهم اليهود كما مرَّ ، وقوله تعالى: "غضب الله عليهم في الآيتين صفة **للقوم** " فلا يشمل غيرهم .

وقال تعالى : {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ، أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلاَ مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}

ففي تفسير على بن إبراهيم : ((**نزلت في أحدهم لأنَّه مرَّ به رسول الله صلى الله عليه وآله وهو جالس عند رجل من اليهود يكتب خبر رسول الله صلى الله عليه وآله فأنزل الله تعالى : " أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلاَ**

مِنْهُمْ " فجاء الثاني إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال رسول الله : رأيتك تكتب عن اليهود ، وقد نهى الله عن ذلك فقال : يا رسول الله كتبت عنه ما في التوراة من صفتك وأقبل يقرأ ذلك على رسول الله وهو غضبان ، فقال له رجل من الأنصار : ويلك أما ترى غضب النبي صلى الله عليه وآله عليك ؟ فقال : أعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله صلى الله عليه وآله...))

والرواية طويلة أخذنا منها موضع الحاجة.

ولا يخفى عليك أنَّ قوله تعالى في الآية التي قبلها **{ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}**تفيد أنَّ هناك تبايناً بين إطاعة الله ورسوله وبين تولّي اليهود فلا يجتمعان أصلاً .

أسباب حلول الغضب على الأمة

الآن وبعد أن تعرفنا على أبرز مصداق "المغضوب عليهم"، ينبغي أن نتعرَّف على الأسباب التي أوصلت بني إسرائيل إلى هذا المستوى من الذل والخزي الدنيوي و حلول غضب الله عليهم في الآخرة، ومن ثمَّ نستنتج المعايير العامّة التي تجرّ الأمّة إلى تلك **المعضلة** .

1-شرح الصدر بالكفر

بنحو يكون الإنسان راغباً في الكفر مائلاً إليه قال تعالى :

{ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنْ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ }

وقد بيّن سبحانه السرّ في حلول هذا الغضب وقال :**{ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ }**والذل الذي يشملهم في الدنيا هو ما بيَّنه سبحانه وتعالى بقوله : **{ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ }**

وأما الغضب الأخروي فيبيِّنه سبحانه بقوله :**{ لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ }**

2-تبديل نعمة الله

{ سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} فقوله تعالى: { **وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ**} عام شامل لكلِّ من يتَّصف بهذه الصفة ، فكلُّ من يبدِّل نعمة الله فسوف يبتلي بالعذاب الشديد .

وعليه ورد الحديث في بصائر الدرجات عن عبد الله بن محمد عن موسى بن القاسم عن جعفر بن محمد عن سماعة عن بن عبد الله بن مسكان عن الحكم بن الصلت عن أبى جعفر عليه السلام قال :

((قال رسول الله صلى الله عليه واله : خذوا بحجزة هذا الأنزع يعنى علياً فانه الصديق الأكبر ، وهو الفاروق يفرِّق بين الحقّ

والباطل ، من أحبَّه هداه الله ، ومن أبغضه أضلَّه الله ، ومن تخلَّف عنه محقه الله ، منه سبطاي الحسن والحسين وهما ابناي ، ومن الحسين الأئمة الهداة ، أعطاهم الله فهمي ، وعلمي ، فأحبّوهم وتولّوهم ولا تتّخذوا وليجة من دونهم ، فيحلّ عليكم غضبٌ من ربِّكم ، ومن يحلل عليه غضبٌ من ربِّه فقد هوى ، وما الحيوة الدنيا إلاّ متاع الغرور))

3-الافتراء

{ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ }

فالآية المباركة عمّمت الأمر على كلِّ مفترٍ من هذا النمط أي **مبتدع.** وقد ورد في تفسير الآية المباركة حديثٌ في أصول الكافي علي بن إبراهيم عن أبيه عن القاسم بن محمد عن المنقري عن سفيان بن عيينة عن السدي عن أبي جعفر عليه السلام قال :

((ما أخلص عبدٌ الإيمان بالله أربعين يوماً أو قال : ما أجملَ عبدٌ ذكرَ الله أربعين يوماً إلاّ زهده الله في الدنيا وبصَّره داءَها ودواها ، وأثبت الحكمة في قلبه ، وأنطق بها لسانه ، ثمَّ تلا : " إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ "فلا يرى صاحبُ بدعةٍ إلاّ ذليلاً ، ومفترياً على الله عز وجل وعلى رسوله وأهل بيته صلى الله عليهم إلاّ ذليلاً .)) ولو راجعنا الأحاديث الشريفة في تفسير العجل وتأويله لعرفنا السرّ في التعميم الوارد في هذا الحديث .

4-الطغيان

{ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلاَ تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى } فالمجتمع الطاغي أي المتجاوز الحدّ في العصيان سوف يحلُّ عليه غضب الله و بالنتيجة سوف يؤدِّي ذلك إلى الهوى أي السقوط والهلاك و هو الهبوط من عالم المعنى إلى عالم المادة والظاهر وفي تفسير "الغضب الإلهي" قد ورد حديث في الكافي:

((بإسناده إلى حمزة بن المرفق عن بعض أصحابنا قال : كنت في مجلس أبي جعفر عليه السلام إذ دخل عليه عمرو بن عبيد فقال له : جعلت فداك قول تبارك وتعالى : " وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى " ما ذلك الغضب ؟ فقال أبو جعفر عليه السلام : هو العقاب يا عمرو إنَّه من زعم أن الله قد زال من شيء إلى شيء فقد وصفه صفة مخلوق و إن الله عز وجل لا يستفزه شيء فيغيره))

الضالون

ثم :

مادام قد عرفنا بأنَّ كلَّ من لم يكن على الصراط المستقيم فهو ضالّ أياً كان سواء غضب الله عليه أم لم يغضب، فينبغي أن

نتعرَّف على هؤلاء الضالين و نبحث عنهم في القرآن الكريم، فهم يشكّلون ثلاث فرق رئيسيَّة :

1-مشركون

المشرك هو الذي يعتقد أنَّ هناك شريكاً لله تعالى فيجعله شفيعاً يتقرَّب إليه :**{وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ... }**وهو أعلى مستوى من الانحراف عن الصراط المستقيم حيث يقول سبحانه:**{ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُ وَمَا لاَ يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ }**ومن هنا يقول سبحانه بصريح الكلمة : **{ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا }**

2-كفّار

لا نعني الكفر بالله فحسب، بل يشمل المعتقدات الأساسيَّة ، فينبغي أن يتبنَّاها المؤمن و يتيقَّن بها بالبرهان وفي صورة ما لو أخلَّ بواحدة منها، فهو قد ضلَّ و انحرف عن الصراط المستقيم .**قال تعالى** :

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا }

ومن نتائج تلك المعتقدات، أن يتجنَّب الإنسان التوجُّه إلى الطاغوت، بل ينبغي له أن يكفر به ويعاديه تلبية لما أمره الله وإلاّ سوف يتورَّط بالشيطان، فيضلّه عن السبيل :

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيدًا}

والجدير بالذكر ما ورد بعد تلك الآية مباشرة، حيث يقول سبحانه :

{ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا }وسوف نتحدَّث عن المنافقين وأنَّهم متورِّطون في القبح بأبشع مصاديقه .

{ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلاَلاً بَعِيدًا }

الضلال البعيد

تلاحظ في الآيات السابقة التركيز على الضلال البعيد ، والبعد هو ضد القرب ، وحيث أنَّه وقع صفةً للضلال الذي هو أمر غير محسوس فأريد منه الضلال الذي يصعب الرجوع منه إلى الهدى، فالضال بالضلال البعيد لا يكاد يرجى له العود إلى الصراط المستقيم ، لأنَّه لا يبقى له شيء يعتمد عليه وهذا هو شأن كلّ كافرٍ بالله سبحانه. وما أروع ما بيَّنه القرآن الكريم من التمثيل ثمَّ تبيين الضلال البعيد حيث قال :

{ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ }

والمقصود من الأعمال هي الأعمال التي تعدّ في نظر الناس من الأعمال الصالحة التي لها ظاهر خلاّب ، لا ما يصدر منهم من الشرور، فهي لا ظاهر لها ولا باطن .

فأعمالهم كالرماد من نواحي مختلفة :

1-لا فائدة في الرماد أصلاً حيث ينتج من الحرق فالرماد ليس هو تراب ولا غبار حتى يمكن الاستفادة منهما ، لأنَّ الرماد ليس إلاّ بقايا الاحتراق بل رماد لا ينبت فيه حتَّى الأعشاب الباطلة .

2-إنَّ ذرات الرماد غير متلاصقة أصلاً و لا يمكن أن تلتصق ولو بمعونة الماء وإن كان يتراءى أنَّها مجتمعة ولكن بمجرَّد أن صادفها ريحٌ، سوف تنتثر فلا يبقى منها شيء. كما أنَّ أعمال الكفّار كذلك، ليس هناك أمرٌ جامع لها، فهي مجرَّد أمور لها ظاهر من غير باطن حيث أنَّ عامل الوحدة بينها هو التوحيد غير المتواجد في أعمال الكافرين .

3-إنَّ الرماد بمجرَّد أن أصابه ريح، سوف تتناثر ذراته فلا تبقى منه شيء، فكيف لو كانت هناك عاصفة فسوف لا يمكن العثور حتَّى على ذرَّة واحدةٍ منها ، وهذا شأن العمل غير الصالح ومن أجل ذلك قال تعالى :

{ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا}

فهم الذين قد خسروا جميع ما عملوه فلم يبق لهم عملٌ يفيدهم :

{ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ، أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا}

ثم

من خلال ما بيَّنا في الأمر الثالث و مع ملاحظة المثال القرآني، يمكننا أن نعرف معنى كثير من الآيات الكريمة و الأحاديث الشريفة ، ففي الكافي عن محمد بن يحيى عن محمد بن الحسين عن صفوان بن يحيى عن علا بن رزين عن محمد بن مسلم قال :

((قال أبو جعفر عليه السلام : اعلم يا محمد إن أئمة الجور وأتباعهم لمعزولون عن دين الله قد ضلوا وأضلوا ، فَأَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ...))

فتأمل في كلمة "لمعزولون عن دين الله " ، فالولاية الإلهية هي التي تجمع شمل الدين كما ثبت ذلك في محلّه .

وفي تفسير علي بن إبراهيم :

((قوله : "مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ "قل : من لم يقر بولاية أمير المؤمنين صلوات الله عليه بطل عمله مثله مثل الرماد الذي تجئ الريح فتحمله .))

وأما صدق الكافر على المعادي فقد أثبتناه سابقاً مستندين بالقرآن الكريم نفسه وهناك مئات من الآيات التي تثبت هذه الحقيقة .

وربما

أريد من الكفّار، الذين يكفرون بالولاية الإلهيَّة، كما يشهد لذلك الحديث السابق و لقائل أن يقول: إنَّ هناك شاهداً في الآية على ذلك باعتبار أنَّ الذين يطلق عليهم الكفّار، كانوا يتوقَّعون الثواب الأخروي على أعمالهم التي يتراءى لهم أنَّها حسنة ، وهذا التصور لا يجرى في الكافر المصطلح، أعني من ينكر الله و المعاد و الثواب والعقاب، فهو لا يتوقَّع ذلك. كيف ولا يرى وراء العمل شيئاً اللهمَّ إلا إذا كان من أهل الكتاب وهو خلاف الظاهر، حيث يصرح القرآن بهم حيثما يذكرهم كقوله تعالى : **"يا أهل الكتاب"** وحينئذٍ يخاطبهم لا ككفّار بل كمؤمنين بالله ضالين عن سواء السبيل ، والخطاب كثيراً ما يكون مرناً سهلاً ويشتمل على الموعظة الحسنة .

وأمّا إذا عدَّهم من الكافرين، فيجعلهم في عداد المشركين المنكرين كقوله :

{ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ ... }

فإذاً الكفّار في الآية، بما أنَّها غير مقيَّدة، لا يقصد منها أهل الكتاب وحينئذٍ سوف يتقوّى الاحتمال من أنَّهم كيف يتوقَّعون الثواب والحال هذه ؟! وكيف يشبِّه الله أعمالهم **كرماد ...** وليس لهم عملٌ ظاهر الصلاح كي يشبه الرماد ؟

هذا :

والنصارى أيضاً من المصاديق البارزة للضالين ، وقد أشارت الأحاديث إلى ذلك كما مرَّ وإن كانت درجات الضلال متفاوتة ولكلٍّ جزاء متعلّق به ، قال تعالى :

{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}

3-مسلمون

وأما المسلمون الذين هم معدودون من الضالين فكثيرون ، وفي كلمة واحدة **" كلُّ من انحرف عن الولاية فهو من الضالين ، مهما يكون انحرافه "** إلا أنَّ أبرز الضالين هم :

المنافقون

والمشكلة الكامنة فيهم هي نفس مشكلة الكفّار من حيث عدم تبعيتهم للولاية الإلهية واستبدالهم بولاية الطاغوت حيث قال تعالى :

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيدًا}

والجدير بالذكر ما ورد بعد تلك الآية مباشرة حيث يقول سبحانه :

{ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا }فالمنافقون قد تورطوا في أبشع مصاديق القبح، حيث جُعِلوا في صف الكافرين، بل وُصفوا بتوصيف لم يوصف به الكافرون حيث قال تعالى :

{ وَلاَ يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ...}

والنفاق نمطٌ خاص من الضلالة، يختلف عن الكفر في الدنيا وإن كانا في الآخرة سواء ، وذلك لأنَّ الكافرين والمشركين وجماعة من المسلمين المتظاهرين بالفسق الضالين غير المنافقين (**بالمعنى المصطلح**) يعيشون في الدنيا من غير قلق و تذبذب بمستوى المنافقين، والسرّ في ذلك أنَّهم -رغم انحرافهم عن الصراط المستقيم - يحسبون أنَّهم مهتدون، فهم لا يرون أنفسهم قد ضلُّوا عن السبيل قال تعالى:

{ فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ }

وقال تعالى:

{ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا} فهم يتوقعون من أعمالهم أن تكون ذات نتيجة إيجابية، إلا أنَّهم يفاجئون بالإحباط كما مرَّ ، وأمّا السرّ في أنَّهم يحسبون أنَّهم يحسنون صنعاً فهو تزيين العمل السيئ وكأنَّه حسن **{ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ. . . }** والذي يزيِّن لهم، إنَّما هو الشيطان، كما تدل على ذلك آيات متعددة منها قوله:**{. . . وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}** وقوله:**{. . . فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ. . . }**

و أمّا

المنافقون فيختلفون عن غيرهم في هذا المجال **{ مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَؤُلاَءِ وَلاَ إِلَى هَؤُلاَءِ وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً}**

فهم من حيث أنَّهم مذبذبون لا يسير على الطريق المستقيم، لا محالة من الضالين ، ولكنهم لا يعيشون الظلمة البحتة كي يتأقلموا معها بل هم بين النور و الظلمة فعيونهم بل قلوبهم في شك أو "**مرض**" على حد تعبير القرآن ، وأنّى لهم إصلاحها فكان بإمكانهم استغلال الفرصة للهداية ولكنَّهم قد خسروا تلك الفرص الذهبيَّة التّي أتيحت لهم فتورَّطوا في الضلال المبين كما قال تعالى:

{ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ }

فهم مع علمهم بالضلالة والهدى إلا أنَّهم قد اختاروا الضلالة و رجَّحوها على الهدى ومن هنا صاروا أشدّ انحطاطاً من الكفّار.

{ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَ يُبْصِرُونَ }

هذا

ومن هؤلاء هم الذين ذكرهم القرآن الكريم في سورة الحج حيث قال:

{ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ } فمثل هذا الإنسان سوف يقع في وادي الشرك والضلالة لا محالة، فيصل إلى مستوى حيث **{ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُ وَمَا لاَ يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ }**

وفي الحديث عن محمد بن يحيى عن أحمد بن محمد عن على بن الحكم عن موسى بن بكر عن زرارة

عن أبى جعفر عليه السلام قال : ((سألته عن قول الله عز وجل : " ومن الناس من يعبد الله على حرف " قال : هم قوم وحدوا الله وخلعوا عبادة من يعبد من دون الله ، فخرجوا من الشرك ولم يعرفوا أن محمدا صلى الله عليه واله رسول الله ، فهم يعبدون الله على شك في محمد وما جاء به ، فأتوا رسول الله صلى الله عليه واله وقالوا : ننظر فان كثرت أموالنا وعوفينا في أنفسنا وأولادنا علمنا انه صادق وانه رسول الله ، وان كان غير ذلك نظرنا ، قال الله عز وجل : " فان أصابه خير اطمأن به " يعنى عافية في الدنيا " وان أصابته فتنة " يعنى بلاء في نفسه " انقلب على وجهه " انقلب على شكه إلى الشرك خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه قال ينقلب مشركا يدعو غير الله ويعبد غيره ، فمنهم من يعرف فيدخل الإيمان قلبه فيؤمن ويصدق ويزول عن منزلته من الشك إلى الإيمان ، ومنهم من يثبت على شكه ومنهم من ينقلب إلى الشرك))

شرح الصدر و ضيقه

الفرق بين المؤمن وغيره، يكمن في باطنهما، فالمؤمن هو الذي يتحلّى بشرح الصدر الحاصل من الارتباط بالنور الذي يمشى

خلفه، بخلاف المنافق و الفاسق فإنهما يتَّصفان بضيق الصدر وقسوته قال تعالى:

{ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ }

وقال :

{ فَمَنْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ وَهَذا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ }

ونكتفي هاهنا بما ورد في كتاب روضة الكافي بإسناده إلى أبي عبد الله عليه السلام في حديث طويل يقول فيه :

((واعلموا أن الله إذا أراد بعبد خيرا شرح الله صدره للإسلام ، فإذا أعطاه ذلك نطق لسانه بالحق وعقد قلبه عليه فعمل به ، فإذا جمع الله له ذلك تمّ له إسلامه ، وكان عند الله إن مات على ذلك الحال من المسلمين حقاً ، وإذا لم يرد الله بعبد خيرا وكَّله إلى نفسه وكان صدره ضيقا حرجا ، فان جرى على لسانه حقّ لم يعقد قلبه عليه ، فإذا لم يعقد قلبه عليه لم يعطه الله العمل به ، فإذا اجتمع ذلك عليه حتى يموت وهو على تلك الحال كان عند الله من المنافقين ، وصار ما جرى على لسانه من الحق الذي لم يعطه الله أن يعقد قلبه ولم يعطه العمل به حجة عليه ، فاتقوا الله وسلوه أن يشرح صدوركم للإسلام وأن يجعل ألسنتكم تنطق بالحق حتى يتوفاكم وأنتم على ذلك))

و في مجمع البيان وقد وردت الرواية الصحيحة، إنه لما نزلت هذه الآية، سئل رسول الله صلى الله عليه وآله من شرح الصدر ما هو ؟ فقال :

((نور يقذفه الله في قلب المؤمن ، يشرح له صدره وينفسخ قالوا : فهل لذلك أمارة يعرف بها ؟ قال عليه السلام : نعم ، الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل نزول الموت))

الكتاب و العترة

وبعد أن تبيَّنت لك أهمِّية الولاية في تجميع شمل الدين، بإمكانك أن تعرف مدى عمق ما ورد في الحديث المتواتر بين الفريقين عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم حيث قال:

{ إنِّي تارك فيكم الثقلين كتابَ الله و عترتِي أهلَ بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً وأنَّهما لن يفترقا حتَّى يَردا عليَّ الحوض }

فالنتيجة التي بيَّنها الرسول صلى الله عليه وآله أعني لن تضلُّوا بعدي أبداً متوقِّفة على التمسك بكلا الثقلين معاً وعليه فمن ترك أحدهما وتمسَّك بالآخر، فقد ضلَّ عن سواء السبيل. وعلى هذا الأساس يمكنك أن تعرف عمق الانحراف في منطق من قال: حسبنا كتاب الله، عندما أراد الرسول صلى الله عليه وآله أن يكتب كتاباً يمنع الأمَّة من الوقوع في الضلال والانحراف عن

الصراط المستقيم :

ففي صحيح البخاري :

((حدّثنا إبراهيم بن موسى حدّثنا هشامٌ عن معمرٍ و حدّثني عبد الله بن محمّدٍ حدّثنا عبد الرزاق أخبرنا معمرٌ عن الزّهريّ عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما قال لمّا حضر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وفي البيت رجالٌ فيهم عمر بن الخطّاب قال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم هلمّ أكتب لكم كتابًا لا تضلّوا بعده فقال عمر إنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قد غلب عليه الوجع وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله فاختلف أهل البيت فاختصموا منهم من يقول قرّبوا يكتب لكم النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم كتابًا لن تضلّوا بعده ومنهم من يقول ما قال عمر فلمّا أكثروا اللّغو والاختلاف عند النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قوموا قال عبيد الله فكان ابن عبّاسٍ يقول إنّ الرّزيّة كلّ الرّزيّة ما حال بين رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغطهم))

وهذا الحديث بهذا النص و السند قد ورد في صحيح البخاري في موارد ثلاثة في كتاب المغازي والمرضى والاعتصام بالكتاب من غير اختلاف إلا يسير ، إلا أنَّه بخصوص كتاب المغازي قال **"فقال بعضهم"** غافلا عن أنَّه قد ذكر اسم القائل في الكتابين الآخرين !

وأيضاً قد أورده مسلم في صحيحه في كتاب الوصيَّة ، وأما أحمد فقد أورد الحديث في موردين وزاد في أحدها: **(فلمّا أكثروا اللّغط والاختلاف وغمّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال:قوموا عنّي))**

هذا و القرآن ينادي :

{ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمْ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا}

{ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمْ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُبِينًا }

إشكالٌ ورد

يبقى هاهنا سؤال ينبغي الإجابة عليه وهو يتعلّق بالآيات التي تسند كلاً من الهداية والضلالة إلى الله تعالى كالآية السابقة أعنى قوله تعالى

{ فَمَنْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا ... }

وقوله تعالى

{وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ } { وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ. . . } {وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ}

وفي الجواب نقول:

1-إنَّ الضلالة قد نسبت إلى الإنسان نفسه كما في الآية المباركة في سورة الحمد وأيضاً قوله تعالى :

{ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ }

2-قد ارتبطت الضلالة بأمور أخرى ترجع إلى العبد نفسه، كما في قوله:

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الضَّالُّونَ }

3-تقيدت الضلالة و الهداية بالمشيئة، في آيات كثيرة:

{ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ...}{ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}{ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}

4-قد وردت آيات بيَّن الله فيها موقع ومحلّ المشيئة الإلهية وارتباطها بفعل العبد نفسه فقال :

{ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأْ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ }فالتكذيب بالآيات له تأثير كبير في إضلال الإنسان نفسه . كذلك قوله { **بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنْ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ }** فالله إنَّما أضلَّهم بعد أن مكروا و اتبعوا الشيطان حيث زيَّن لهم مكرهم ، وكذلك مئات الآيات التّي وردت على هذا المضمار .

وحاصل القول، أنَّه تعالى بعد أن هيأ جميع أسباب الهداية للإنسان من العقل في باطنه و الهداة من الأنبياء والأئمَّة عليهم السلام ، وكثيراً من الوسائل الهدائية، فلو أنَّ الإنسان لم يتَّبعها، فسوف يتركه ويخذله و هذا هو الإضلال المصطلح ولابأس بصدوره من الله مادام العبد وصل إلى هذا المستوى من العصيان ، فطبيعي أنه لا يتَّبع من يهديه إلى الصراط المستقيم وبالتالي لا يكون له **إماماً: { مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا }**

هذا

ونفس الكلام يجري بالنسبة إلى الهداية حيث يقول تعالى شأنه :

{ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ }

والجدير بالذكر ما ورد بخصوص قوم ثمود حيث قال تعالى :

{ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ }

فالمتأمل يعرف المقصود الحقيقي من الهداية وفي أحاديث أهل البيت عليهم السلام قد ورد أنَّ المقصود من "**فَهَدَيْنَاهُم**" **أي**

عرفناهم ثمَّ ورد في الحديث :((**فلو جبرهم على الهدى لم يقدروا أن يضلوا**))

هذا :

وقد أنهيت تفسير فاتحة الكتاب في ليلة الجمعة 3 صفر 1419 المصاف 29/5/ 1998 الساعة 2:20 بعد نصف الليل وهو يوم مولد النور الخامس الإمام محمَّد الباقر عليه السلام والحمد لله ربِّ العالمين وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.....إبراهيم الأنصاري البحراني -الكويت